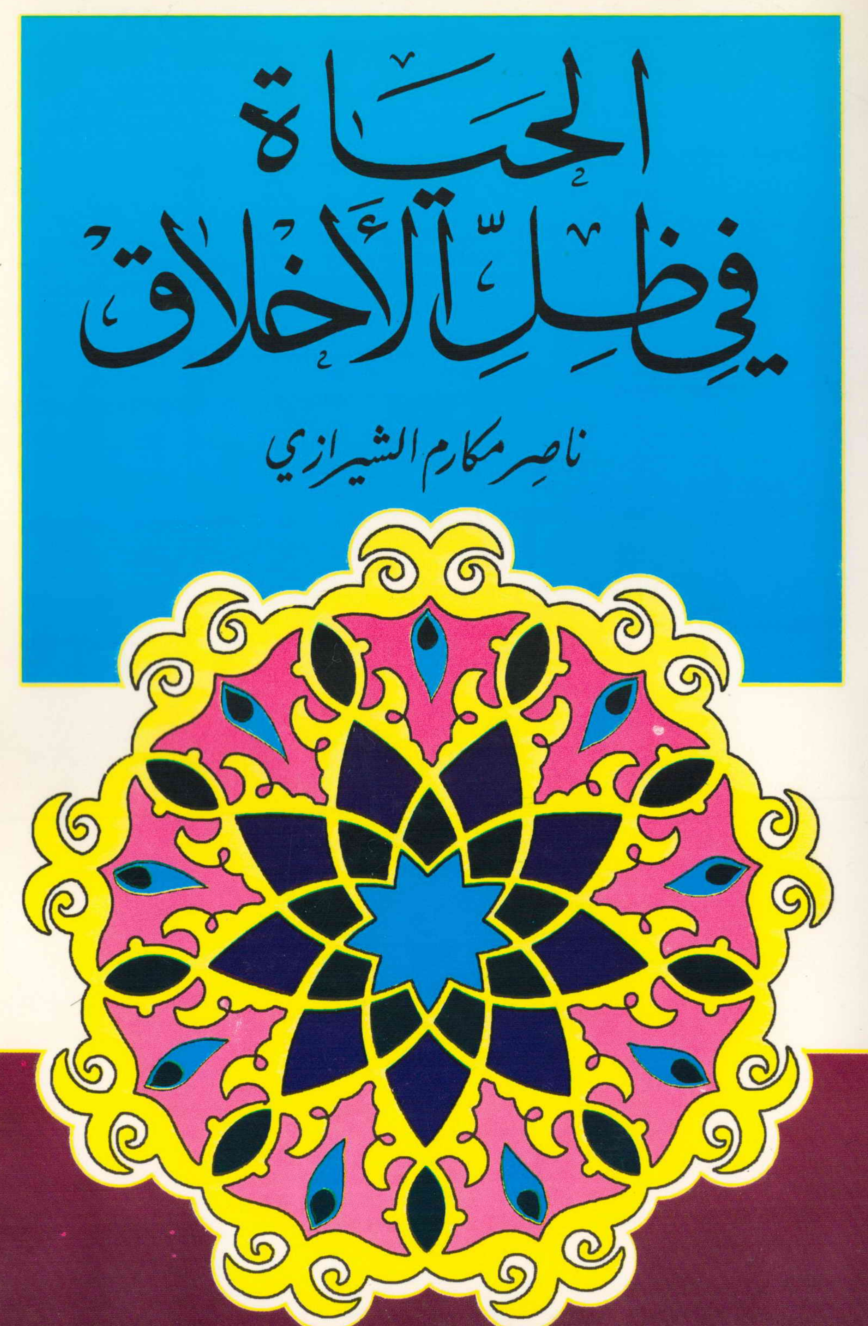

الحياة
في ظل الأخلاق
ناصر مكارم الشيرازي
دار النبلاء



شبكة الفكر
alfeker.net



الحياة
في ظل الأخلاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾



ناصر مكارم الشيرازي

دار النبلاء

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م

توزيع دار ومكتبة

الرسول الأكرم (ص)

بيروت ـ لبنان ص ـ ب ١١/٨٦٠١

هاتف: ٨٣٧٨٢٦/مقسم ١١٤

فاكس: ٦٠١٠٠٥ ـ ١ ـ ٠٠٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ماذا نبحث في هذا الكتاب الضياع والحيرة العالميين؟

أم عويل ضحايا الاعتداءات والحروب والجرائم؟

أم انحلال العلاقات الأُسريّة، وتصاعدُ وتيرة ذلك يومياً؟

الجميع يشهدون بوضوح أنَّ القوانين الموجودة في العالم، على الرغم من كافة المساعي المبذولة لإصلاحها وتحسينها فإنها لا زالت عاجزة عن منح البشر حياة عقدية، بل إنها حطمت هذا الأمل علىٰ صعيد المستقبل أيضاً.

ولا ندري إلى متى نبقىٰ نجرّب هذه القوانين البالية التي لا تستطيع الدفاع عن أنصارها، ناهيك عن غيرهم.

إنَّ هذه القوانين كالآبار العميقة التي قد تصادف في طريقها صخوراً عظيمةً تحت الأرض تُنهك من يحاولُ كسرها والتوغّل فيها، فلا يصل إلىٰ نبع الماء أبداً.

لذا يجب التفتيش عن موضع الخلل، ثم السعي لمعالجته.

وفي المرحلة الأولىٰ نواجه هذه المسألة وهي انَّ هذه القوانين كالعقاقير المستعملة خارجياً لها أثر سطحي فقط، ولا تستطيع أن تتوغل خطوة في أعماق روح الإنسان المؤثرة في قواه ونشاطاته لكي تحفّزها وتقطع جذور الفساد.

فأيُّ قانونٍ (مثلاً) يستطيع أن يوقظ عقول وضمائر تلك الثُّلّة من الأغنياء، الذي يتبنّون إيجاد قرية القطط المليونيرية عن طريق إيصالهم بتخصيص ثرواتهم لهذه القطط بعد موتهم، ويدعوهم لمساعدة الملايين من الجياع في أفريقيا؟

وأيُّ قانونٍ قادرٍ علىٰ ترويض الغرائز الجامحة والمنحطّة، وتربية مشاعر الإنسان، وتوجيه إمكاناتهِ الإبداعية العظيمة في طريق الإعمار والبناء؟

فهل يستطيع قانون معين النفوذ إلىٰ روحه وقلبه لخلق هذه التحوُّلات؟ ومن البديهي أن مثل هذا القانون لا يمكن أن يكون من القوانين الوضعية.

من هنا تتضح تربية وتنمية جانب آخر يدعىٰ بالأخلاق، ذلك الجانب الذي يشبه الأمواج المتلاطمة التي تعبُر جميع الموانع لتجد طريقها إلىٰ روح الإنسان لتحوّله إلىٰ فرد جديد يتحلّىٰ بصفات إلٰهيّة سامية، وتبني منه إنساناً بمعنىٰ الكلمة.

إنساناً يشارك الآخرين همومهم وغمومهم.

إنساناً ينظر إلىٰ مصالحه ومصالح الآخرين بعينٍ واحدة.

إنساناً يأبىٰ أن يحصل علىٰ راحته علىٰ حساب الآخرين.

إنساناً يتمتع برؤية فكرية واسعة، متنزهاً عن الإيذاء، والاعتداءات، والنظرات الضيّقة، والانتقامات، يشكّل مع باقي أبناء جنسه مجتمعاً مفعماً بالخير والبركة.

أجل، يجب أن يُنمّىٰ الجانب الأخلاقي، والكتاب الذي بين يديك قد كُتبَ لهذا الغرض، مستعيناً بالمصادر الإسلاميّة الغنيّة.

شوال ١٣٩٣ هـ

ناصر مكارم الشيرازي

الفصل الأول

«الأخلاق والتربية»

هل أنَّ أخلاق وطبيعة الأفراد قابلة للتغيير في ظل التربية أم لا؟

إنَّ هذا السؤال يحدد مصير علم الأخلاق؛ لأننا لو قلنا: إنَّ أخلاق الأفراد تتبع وضع بُنيتهم الروحيّة والجسميّة، لكان علم الأخلاق تافهاً، أمّا لو اعتقدنا بإمكانية التغيير، فإنَّ شرف وأهميّة هذا العلم ستتضح بصورة جيّدة.

وقد أيّد بعض العلماء، الاحتمال الأوّل واعتقدوا بأنَّ الأشرار والفاسدين كالأشجار التي تعطي ثماراً مُرّةً (مثلاً) لا تتغير طبيعتها بعناية ورعاية الفلاّح، وهؤلاء أيضاً لا تتغير جبلّتهم بالتربية، وإن تغيرت فهو تغيّر سطحي وعرضي سرعان ما يزول ويعودون لحالتهم السابقة.

إنهم يقولون: إن البنية الجسميّة والروحيّة لها اتصال وثيق بالأخلاق، بل الواقع إنَّ أخلاق أي فرد تتبّع تركيبته الروحيّة والجسمية، لذا فهي غير قابلة للتغيير، ويستدلون علىٰ قولهم هذا بأحاديث مثل (الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة).

وبإزاء هذا الاعتقاد، هناك عقيدة أكثر العلماء الذين يعتقدون بإمكانية تغيير أخلاق وجبلّة الأفراد، عن طريق التربية، بصورة تامّة والتجارب الكثيرة التي أجريت علىٰ الأفراد الفاسدين خُلقياً تُثبت هذه الحقيقة أيضاً، إذ أنَّ المحيط السالم والمعاشرة الصالحة والتربية الساميّة، قد أصلحت الكثير من الأشرار إصلاحاً كاملاً؛ وعلاوة علىٰ هذا، فلو لم يكن الأمر كذلك لبطلت جميع التعاليم السماويّة الصادرة

علىٰ لسان الأنبياء وأئمة الدين؛ لأنّها جميعاً جاءت من أجل تربية النفوس البشريّة ولبطلت أيضاً جميع الأحكام التأديبيّة المتعارفة لدىٰ جميع الأمم في العالم، بينما نرىٰ أنَّ الحيوانات الوحشية الجارحة تُروّض عن طريق تربيتها، ويُسلك بها علىٰ خلاف طباعها وفطرتها الأساسيّة، فكيف يمكن التصديق بأنَّ الأخلاق السيئة لدىٰ بني آدم هي أعمق جذراً من الطباع الوحشيّة للحيوانات المفترسة؟!

وباعتقادنا فإنّه ليس هناك طريق لإثبات هذا الادّعاء أفضل من متابعة ودراسة أسلوب نشوء مَلَكة أخلاقيّة، لكي نفهم أسلوب إزالتها بنفس الطريقة التي كانت سبباً في نشوئها.

كلُّنا نعلم أنَّ أي عمل حَسِن أو قبيح له أثر خاص في روح الإنسان وجذبها إليه، وتكرار هذا العمل يعمّق ذلك الأثر إلىٰ أن يصل شيئاً فشيئاً إلىٰ حالةٍ تُسمّىٰ «بالعادة» وإن تكرّر أكثر استحكم الأثر فصار «ملكة»، وعليه تزيد رغبة الإنسان الداخلية بممارسة ذلك العمل كلّما تأصّلت جذور تلك العادات والملكات، وهذه الحقيقة قد أثبتتها التجربة بصورة جيدة، وعليه فكما أنَّ العادات والملكات الأخلاقية توجد عن طريق التكرار، فإنّها قابلة أيضاً للإضمحلال بالطريقة نفسها، أي العلم في البداية، ثم تكراره، حتىٰ تحقيق الصّفة والملكة الأخلاقيّة.

وطبيعي فإنَّ الإيحاء والتفكُّر والتعليمات الصحيحة والمحيط السالم، الذي له أثر إيحائي أيضاً، تؤثر جميعاً بصورة عميقة في تهيئة الأرضيّة الروحيّة المناسبة لقبول الأخلاق الحسنة والتحلّي بها.

الأخلاق السيئة نوع من الأمراض:

كُلُّنا نعلم بأن للإنسان، دون سائر المخلوقات الحيّة، وضعاً استثنائياً خاصاً؛ لأنَّ وجوده مُركّبٌ من قوىٰ متناقضة.

فمن ناحيةٍ نجد أن سلسلة الأهواء النفسيّة الجامحة والغرائز والميول الحيوانية تدعوه إلىٰ الأخلاق الذميمة والتعدّي علىٰ حقوق الآخرين، والعبث وإطاعة الشهوات والخيانة والكذب.

ومن ناحية أخرىٰ نجد أن قوىٰ العقل والإدراك والعواطف الإنسانية والضمير تدعوه إلىٰ الأخلاق الفاضلة والإيثار والحب والإخلاق والتقوىٰ وغيرها.

والتنازع بين هذه القوىٰ موجودٌ في جميعِ البشر، والتغلُّب النسبيُّ لأحدها يؤدّي إلىٰ اختلاف مستويات الناس من حيث القيم الإنسانية بصورة تامّة، ومن ثمَّ إلىٰ ازدياد المسافة بين أعلىٰ وأسفل نقطة في المنحنىٰ الصعودي والنزولي للإنسان، فأحياناً يصل إلىٰ مرتبة أعلىٰ من الملائكة المقرّبين، وأحياناً أُخرىٰ إلىٰ مرتبة أدنىٰ من أخطر الحيوانات المفترسة.

وهذه الحقيقة مستنبطة من أحاديث عديدة منها ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ قال: «إنَّ الله خصَّ الملك بالعقل دون الشهوة والغضب، وخصَّ الحيوانات بهما دونه، وشرّف الإنسان بإعطاء الجميع، فإن انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة؛ لوصوله إلىٰ هذه الرتبة مع وجود المنازع، والملائكة ليس لهم منازع» (جامع السعادات، ج ١ ص ٣٤).

ولكن ينبغي الانتباه هنا إلىٰ أنَّ الغرائز والميول والشهوات في حالتها الطبيعيّة المتوازنة ليست خالية من الضرر فقط، بل هي ضرورات حياتيّة للإنسان.

وبعبارةٍ أخرىٰ كما أن جسم الإنسان لم يُخلق فيه عضو عديم الفائدة أو بلا وظيفة، فإنَّ كل الدوافع الذاتية والغرائز والميول لها أثر حيوي في روح الإنسان وقلبه، ولا تكون ضارّة أو مُهلكة إلاّ في حالات الانحراف عن الوضع الطبيعي واختلال التوازن.

فمثلاً من ذا الذي يستطيع إنكار أثر الغضب في حياة الإنسان؟

فعندما تتعرّض حقوق أحد الأفراد للسلب والاعتداء ولم تُجنَّد جميع قواه المخزونة في وجوده تحت شعاع القوة الغضبية، كيف يستطيع الدفاع عن حقّه وهو في حالة الهدوء التي لم يستخدم فيها

حتىٰ عُشرُ قواه المخزونة، ولم يدخلها في ساحة الصراع؟

لكن لو انحرفت هذه القوة الغضبيّة عن محورها الأصلي، ولم تكن سلاحاً رادعاً في يد العقل، لصار الإنسان حيواناً شرساً مطلق العنان.

وكذلك رغبة الإنسان المتوازنة بالثروة والجاه وما شاكل ذلك وأثرها الواضح في تمكينه من سلوك طرق الكمالات، كما لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ الأثر السلبي لحب المال والجاه، أي الإفراط في هذه الميول.

لذا فكما أنَّ اختلال التوازن الجسماني يصحبه أعراض مؤلمة يطلق عليها (المرض) كذلك اختلال توازن القوىٰ الروحيّة والغرائز والميول يعتبر نوعاً من الأمراض الروحية سمّاها علماء الأخلاق بـ الأمراض القلبيّة.

وهذا التعبير مأخوذٌ في الحقيقة من القرآن الكريم حيث كنّىٰ عن نفاق المنافق بالمرض: ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً﴾ (سورة البقرة ـ الآية ١٠)

* تهذيب النفس أو الجهاد الأكبر:

وحَسْبُك من تهذيب النفس فضيلةً أنّها سُمّيت بالجهاد الأكبر، كما جاء هذا التعبير في الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ عندما لقي جماعة من أصحابه وقد عادوا من إحدىٰ الغزوات فقال لهم: «مرحباً بقوم قضّوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر فقيل يا رسول الله مَا الجهاد الأكبر؟ قال جهاد النفس» (وسائل الشيعة ـ كتاب الجهاد).

لذا نجد أنَّ بعض رواة الحديث المشهورين قد وضعوا البحوث المتعلّقة بتهذيب الأخلاق في باب الجهاد وعَدُّوها أحد أقسامه، وقد روي عنه ﷺ: «إنَّ أفضل الجهاد من جاهدَ نفسه التي بين جنبيه».

ويبيّن هذا الحديث منهج الإسلام في هذه المسألة الحيويّة بصورة جيّدة ويكشف عن الحقائق التالية:

١ ـ تحتوي النفس الإنسانيّة قوىٰ متضادة متحاربة يتوقف مصير الإنسان علىٰ تغلُّب إحداها.

٢ ـ أُطلق علىٰ جهاد النفس الجهاد الأكبر لكونه جهاداً أبدياً لا نهاية له، إضافةً إلىٰ أنَّ الجبهة الداخلية هي أخطر من الجبهة الخارجيّة دائماً، ومع غضّ النظر عن جميع ذلك فإنَّ الانكسار في هذا الجهاد لا ينجم عنه سوىٰ الشقاوة والهلاك الأبديّ، في حين أن الانكسار في الجهاد الاعتيادي قد يَتَسَبَّبْ في نيل شرف الشهادة.

وبعبارةٍ أخرىٰ إن جهاد العدو الخارجي لا انكسارَ أو خسارة فيه أبداً، بينما نجد أنَّ احتمالات الانكسار في جهاد النفس كثيرة.

٣ ـ في الوقت الذي نجد فيه أنَّ هذا الجهاد شاقٌ ومتعبٌ، فإنّه يُعَدُّ السبيل الوحيد لتكامل الإنسان، وبديهيٌّ أن التكامل يحصل نتيجة لتضادّ وتنازع قوىٰ الخير والشر، فيسعىٰ الإنسان لمصارعة الظروف وعدم الاستسلام للمشاكل، قال علي عليه السلام إن أشجار الغابات المعرّضة للعواصف بصورة مستمرة هي أصلب سيقاناً وأحسنُ اتّقاداً.

ومن هنا يتَّضح السرّ في خلق هذه القوىٰ والأهواء النفسيّة المتضادة.

٤ ـ قد تكون الغاية من مجاهدة العدو الخارجي هي الحصول علىٰ أغراض ماديّة كالغنائم أو كسب الشهرة وغيرها بينما نجد أن الغاية من جهاد النفس هي تحصيل الكمالات وكسب الفضائل فقط، والانتصار فيه يدل علىٰ إيمان وإرادة وتصميم وهمّة وشموخ شخصية الإنسان.

* السعادة والحظ السعيد:

اعتبر علماء الأخلاق أن الغاية القصوىٰ من علم الأخلاق هي

تحصيل السعادة التي هي هدف جميع البشر من مساعيهم ومحاولاتهم المستمرّة التي يعيشونها والتي غالباً ما يستاؤون من الإخفاق في الوصول إليها.

ما هي السعادة؟ يمكن تفسير كلمة السعادة بعبارة قصيرة وهي «وصول الإنسان بحركته الإراديّة النفسيّة إلىٰ كماله الكامن في جبلّته».

وبعبارة أخرىٰ هي استعمال القوىٰ الماديّة والمعنوية المختلفة الموجودة عند الإنسان بصورة صحيحة.

ومن جهةٍ فإنَّ كلمتي «الكمال» و«الاستعمال» واضحتان من حيث المفهوم العام، لكنهما معقّدتان من يحث المصاديق الجزئيّة، إذ غالباً ما يشتبه الكثيرون في فهم معنىٰ السعادة، فيمكن لأحد الأغنياء مثلاً وقد أفنىٰ روحه وجسمه طيلة عمره من أجل جمع الثروة، أن يشعر بأنه قد حقق السعادة، في حال اعتقاد ابنه العابث - الذي يبذّر ثروة والده بعد موته ويصرفها في سبيل إرضاء شهواتِهِ وغرائزه - بأنَّ هذه هي السعادة، مع أن كليهما علىٰ خطأ.

وعلىٰ أيّة حال ينبغي الاستعانة في هذه المجالات بالتحليلات العقليّة الصحيحة لمعرفة السُبل الواقعية لتكامل الإنسان من جهة، والطريق الصحيح لاستعمال الطاقات الماديّة والمعنويّة الموجودة لديه من جهة أُخرىٰ، وإن كانت هذه التشخيصات تحتاج إلىٰ مطالعات وجهود مكثّفة.

* هل للسعادة جانبٌ روحيّ أم جسميّ؟

اعتقد جماعة من فلاسفة اليونان القدماء (كالكلبيّين) بأنَّ للسعادة جانباً روحيّاً فقط وليس للبدن حظٌ فيها، لذا حصروها في الكمالات والأخلاق الفاضلة، بل اعتقدوا بأن لا سبيل لتحقيق السعادة الكاملة في هذا العالم، وصرّحوا بأن السعادة العظمىٰ لا تحصل للنفس ما دامت متعلّقة بالبدن وملوّثة بالكدورات الطبيعيّة والشواغل الماديّة، وأن

السعادة المطلقة لا تتحقق لها ما لم تنفصل الروح عن البدن.

ولذا فقد أهملوا جميع العوامل الماديّة في تحصيل السعادة.

وحالات ديوجانوس حكيم الكلبيّين، ومعيشته في غار! عوضاً عن الغرف والبيوت، واكتفاؤه بإناء واحد لشرب الماء من بين جميع مستلزمات الحياة، معروفة ومشهورة، وقد قيل: إنهُ رأىٰ ذات يومٍ رجلاً يشرب الماء من النهر بيده فرمىٰ إناءه!

وبإزاء هؤلاء تأتي عقيدة الماديّين الذين يعتقدون بأن السعادة تنحصر في مزاولة اللذائذ الماديّة بلا قيدٍ أو شرط وينكرون كلّ الموانع التي تعترض ذلك.

واعتقد الماديّون بأن السعادة المطلقة تنحصر في اللّذات الماديّة وأوغلوا في هذا الطريق إلىٰ حد الجنون، وتمردوا علىٰ جميع القيود والآداب الأخلاقية والاجتماعيّة من أجل الوصول إلىٰ السعادة.

وبديهي أن هذا الاعتقاد، الذي أخذ للأسف الشديد يشيع عند الغربيين والمتأثرين بالغرب، لا يمكن تسميته بالمذهب، بل هو نوع من الهذيان والمرض النفسي، ولكنه علىٰ ما هو عليه يمكن اعتباره ردّ فعل تجاه المذاهب الإفراطية كمذهب «الكلبيّين»، الذي أهمل الجوانب الجسمية في موضوع السعادة بصورة كليّة.

أمّا الطائفة الوسط فقد صرَّحوا بأنَّ الإنسان مُركَّبٌ من الروح والجسم معاً، وحقيقة خلقته قائمة بهذين القسمين، لذا ينبغي عليه أن يحقق السعادة في كليهما. وطبيعيٌ أنَّ أيَّ برنامج يعتني بأحدهما فقط لا يمكنه أن يُسْعِدَهُ؛ لأنَّه لا يتطابق مع الواقع الخَارجي.

ومن بين فلاسفة اليونان نجد أن المعلّم الأول أرسطو وأتباعه، كانوا يميلون إلىٰ هذا الرأي، والقوانين الإسلاميّة الساميّة قد دعمته بصورة واضحة ووضعت له أُسساً جديدة.

وهذه الحقيقة يمكن لمسها في آيات عديدة من القرآن الكريم

وأحاديث أئمتنا الأبرار. ويتلخّص شعار الإسلام في هذه المسألة بالآية التالية: ﴿فمن الناسِ من يقول ربنا آتِنا في الدنيا حسنةً وماله في الآخرةِ من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتِنا في الدنيا حسنة وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا والله سريع الحساب﴾ (الآيتان ٢٠٠ و٢٠١ ـ سورة البقرة).

ومما يجدر الانتباه إليه بصورة تامّة في مثل هذه البحوث أن الآصرة والعلاقة بين الروح والجسد قويّة لدرجة أنَّ الانحراف في أحدهما يترك أثره في الآخر.

ولقد أثبت علم النفس اليوم أن قسماً من الانحرافات الاخلاقية والفكرية ناشىء من عدم إشباع الغرائز الجسميّة والماديّة بصورة صحيحة.

إنَّ الميول والغرائز المكبوتة تتحوّل في الغالب إلىٰ عُقد نفسيّة تخلق مشاكل كبيرة لعلماء الأخلاق يتعسّر عليهم حلُّها بالطرق التي يسلكونها في تربية النفوس، إذ يتعين التماس حلّها من نفس الطريق الذي نشأت منه، أي إشباع الغرائز الجسمية بالطرق المشروعة.

فما أكثر المصابين بسوء الظن والخوف والحسد والتكبُّر والحقد وما شاكل هذه الرذائل وسببها هو حرمانهم وإخفاقهم في إشباع إحدىٰ غرائزهم الجسميّة بصورة صحيحة. لذا ينبغي اليوم علىٰ كافة علماء الأخلاق وعلماء الدين، لأجل معالجة الأمراض الأخلاقيّة، أن يأخذوا الحالتين الجسميّة والروحيّة معاً بنظر الاعتبار، لكي يَصلوا إلىٰ مُرادهم.

ولقد شمل الإسلام هذه المسألة الحساسة بنظرته الدقيقة وقال في صريح الآية ٣٢ من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حرّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيباتِ من الرزقِ قُل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾.

فانظر بدقة إلىٰ كلمة «عباد» و«الذين آمنوا» وإضافة كلمة زينة إلىٰ لفظ الجلالة.

وقد ورد في الحِكَم القصار لأمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «للمؤمن ثلاث ساعَات فساعةٌ يناجي فيها ربّه، وساعة يرمُّ معاشهُ، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحِلُّ ويجمل». وقد وردت تكملة للحديث في بعض النُسَخ «وذلك عونٌ علىٰ سائر الساعات».

*** الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة:**

يرىٰ البعض أن جميع الصفات الأخلاقية تُقيَّم علىٰ أساس معاشرة الإنسان للآخرين، بحيث لو تجرّد عن المجتمع بصورة تامّة وعاش منفصلاً عن الآخرين تماماً، وبصورة مجردة عن الوجود لفقدت الأخلاق معناها بالمرّة!

لأنَّ الغبطة والحسد والتواضع والتكبُّر وحسن الظن والعدالة والفجور والعفّة والسخاء والبخل وما شاكل ذلك، كلُّها صفات تُعكس معناها من خلال المجتمع واحتكاك الفرد بالآخرين فقط، فتجريد الإنسان من المجتمع معناه تجريده من الأخلاق.

ومع اعترافنا بأن الكثير من الفضائل والرذائل الأخلاقية ترتبط بالحياة الاجتماعيّة للإنسان، إلاّ أنَّ هذه النظرة غير شاملة؛ لأنَّ لبعض الصفات الأخلاقية جوانب فرديّة، وهي مصداق صحيح في الإنسان المنفرد أيضاً، كالصبر والجزع علىٰ المصائب والشجاعة والجبن في الحوادث الواقعة واستعانة شخص أو تكاسله في الوصول إلىٰ هدفه والغفلة والذكر لله سبحانه وتعالىٰ والشكر أو الكفر بالنعم الإلهيّة اللاّمتناهية وغيرها، مما بحثه علماء الأخلاق في كُتبهم وعَدّوها من الفضائل أو الرذائل الأخلاقية، فقد يمكن أن يكون لها جانبٌ فرديٌّ يَصدق حتىٰ علىٰ فرد منعزل تماماً عن المجتمع.

ومن هنا تتضح ضرورة تقسيم الأخلاق إلىٰ أخلاق فرديّة وأخلاق اجتماعية وغنيٌ عن الإشارة أن للأخلاق الاجتماعيّة ثقلاً أكبر في علم الأخلاق، وتتمركز شخصية الإنسان حولها بصورة أكثر، رغم أن

للأخلاق الفرديّة حصّةً ملحوظة في مجالها أيضاً.

*** الخطأ الفادح:**

والنقطة الأخرىٰ التي يلزم ذكرها هنا هي إنَّ الذين يعتزلون المجتمع لأجل تهذيب وتربية نفوسهم ويميلون إلىٰ الانزواء متوهمين أنّ هذا هو السبيل الأفضل لبلوغ المقصود، هم علىٰ خطأ كبير؛ لأنهم يبطلون جانب الأخلاق الاجتماعية بعملهم هذا، فمع أنَّ هذا العمل يجنّبهم المفاسد، لكنّهُ لا يعتبر فضيلة، إذ يمكن تمثيلهم برجلٍ استأصل عضوه التناسلي لمعالجة ميلهِ إلىٰ الفحشاء والمنكر، فصحيح أنّه لا يُبتلىٰ بالزنا بعدها، لكن ذلك لا يُعَدًّ فضيلة له.

وعلاوةً علىٰ هذا فقد أثبتت التجارب أنَّ العزلة والانزواء عن المجتمع يخلق سلسلة من المفاسد الأخلاقية عند الإنسان كسُوء الخُلُق وسوء الظن والعجب والغرور وسوء الظن بأفعال الله سبحانه وتعالىٰ، مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد.

لذا فقد دعا الإسلام المسلمين إلىٰ الحياة الاجتماعيّة ورغبهم في السواد الأعظم أي المدن الكبيرة وأوصىٰ الإنسان بمراعاة المسائل الأخلاقية في قلب المجتمع.

السبيل لمعالجة الانحرافات الخلقية

تناولنا فيما مضىٰ هدف علم الأخلاق وأهميته وعلاقته بالحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وحان الآن وقت دراسة جزئيات (الملكات الأخلاقية) وطريق معالجة الرذائل. ولكن نجد من الضروري جداً أن نشير إلىٰ نقطتين:

الأولىٰ: يجب علينا دائماً أن نتعامل مع المنحرفين خُلُقياً كمصابين أو مرضىٰ، فكما ذكرنا إنَّ الانحرافات الخلُقية هي في الحقيقة نوع من الأمراض الروحيّة التي قد تسبب الأمراض الجسمية في بعض الأحيان، أو بالعكس فإن بعضها قد تنشأ من الأمراض الجسميّة، لذا يجب علينا مراعاة نفس الخطوات المتبعة في معالجة الأمراض الجسميّة في هذا المجال أيضاً.

ولغرض معالجتها تُتَبَعْ الخطوات الثلاث التالية:

١ ـ معرفة جنس المرض.

٢ ـ معرفة أسبابه وعلاماته.

٣ ـ كيفية العلاج.

ويستعان غالباً بأعراض المرض لتشخيص نوعيته، ويسهل ذلك في الأمراض الجسميّة نوعاً ما خصوصاً بالوسائل والأجهزة الحديثة. لكنَّ الموضوع في غاية التعقيد في المسائل الأخلاقيّة، حيث يصادف أن تتشابه أعراض الانحرافات الخلقية، أو تظهر أعراض سببها اختلاط

عدة أنواع من الأمراض الخُلُقية، بنحو يتعسَّر معه تشخيصها، لذا ينبغي لعالِم الأخلاق والطبيب الروحي أن يتأنّىٰ ويدقق جيداً عند معالجة نفسه أو معالجة الآخرين.

أمّا في المقطع الثاني فيجب دراسة تاريخ حياة الفرد المنحرف، خصوصاً في فترة الطفولة التي تُعَدُّ قاعدة لشخصيّة الإنسان، وكذلك محيطه العائلي والاجتماعي وعملَهُ ومكسبه وموقعهُ الجغرافي، بصورة كاملة لمعرفة العوامل المؤدّية إلىٰ نشوء ذلك المرض الخُلُقي، ولا ينبغي إهمال العامل الوراثي أيضاً، فقد يكون للرذائل جينات وراثيّة في بعض الأحيان كالأمراض الجسميّة.

أمّا في المقطع الثالث، أي علاج المفاسد الخلقية، فإنها إذا كانت مزمنة وقد مضىٰ عليها فترة طويلة، وجب الصبر وسعة الصدر والدّقة والمراقبة لمعالجتها، وعدم الاستسلام لطول المدة. وكلّما كانت الحالة سطحية وعارضة أمكن علاجها بمدّة أقصر.

لذا فإن إصلاح المفاسد الخلقية عند الشباب والأحداث أسهل بكثير منه عند الكبار؛ لأن الزمرة الأولىٰ تتلوث بسرعة وتشفىٰ بسرعة أيضاً. قال الإمام الصادق عليه السلام: «عليك بالأحداث فإنّهم أسرع إلىٰ الخير».

* الصحة الروحيّة:

أمّا النقطة الثانية الضروريةِ الذكر: فهي أنَّ الطب الحديث ينقسم إلىٰ قسمين هما طب العلاج وطب الصحّة، والمراد من طب العلاج واضح، أما المراد بطب الصحّة فهو الوقاية من حدوث الأمراض ومكافحة أسبابها، ولكون الوقاية خير من العلاج، وللصحّة أهميةٌ استثنائية كبيرة في حياة الأفراد ومصير المجتمعات، لذا يتم رصد مبالغ طائلة لتحقيقها.

وهذان الفرعان موجودان أيضاً في المسائل الأخلاقيّة والأمراض

الروحيّة، لذا يجب السعي لمنع حصول الانحرافات الخلُقية ما أمكن ذلك، واتخاذ التدابير اللازمة للصحّة الروحيّة الخاصّة والعامّة.

ولتحقيق ذلك يجب رعاية الأمور التالية:

١ ـ اجتناب المعاشرات الفاسدة والمشكوكة:

فمن البديهي أنَّ الكثير من الانحرافات الخلقيّة ناجمة عن المعاشرة بالضبط كالأمراض المُعْدية والسارية وخصوصاً فيما لو كانت هناك أرضية لاكتساب أخلاق الآخرين كحداثة السّن أو قلّة المعلومات أو ضعف الإيمان؛ فإنَّ معاشرة الأشرار في مثل هذه الحالات تُعَدُّ سُماً مهلكاً وقاتلاً.

٢ ـ إصلاح البيئة:

ويزداد احتمال الابتلاء بالمفاسد الخلقية في الأماكن الملوثة، وعلىٰ الأخص في المحيط الذي تكثر فيه مظاهر الفسق والمفاسد الأخلاقيّة، وهذه حقيقة غير قابلة للإنكار، لذا تُعتبر محاربة الموبوء ومنع التجاهر بالفسق والفساد الأخلاقي من أهم خطوات الصحة الروحية.

ويعتبر استعظام الذنب وتقبيحه في نظر الإنسان، واحداً من أهم الحواجز التي تمنعه من ارتكاب الذنوب والرذائل، والتجاهر بها يصغّرها في عينه ويقلل من كراهيتها، ويروّض القلب ويخلق فيه الاستعداد لارتكابها.

وإنما قرر الإسلام تنفيذ الحدود أمام الملأ العام فلغرض ترسيخ أهميّة وعظمة الدين في نفوس الآخرين من جهة، ولترميم ذلك الحاجز الذي هُدّمَ من جهة أخرىٰ، قال تعالىٰ في محكم كتابه الكريم في سورة النور: ﴿وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين﴾ (سورة النور ـ الآية ٣).

ولقد أعار الإسلام أهميّة فائقة لمسألة التجاهر بالفسق واعتبرها من مبررات هتك حرمة ذلك الشخص المتجاهر.

قال الصادق عليه السلام: «إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له» (وسائل الشيعة ـ كتاب الحج ـ أبواب العشرة).

وقال الباقر عليه السلام: «ثلاثة ليس لهم حرمة صاحبُ هوىً مبتدع والإمام الجائر والفاسق المعلن بفسقه» (المصدر المذكور أعلاه).

وحتّىٰ نقلُ الكلام المرتبط بالفساد والفحشاء، والذي يؤدي إلىٰ تلويث الأفكار وتهيئة الأجواء لتقبُّل الفساد، يُعَدُّ حراماً في الإسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سمع فاحشةً فأفشاها كان كمن أتاها، ومن سمع خيراً فأفشاه كان كمن عملَهُ»... (وسائل الشيعة ـ كتاب الحج).

وخلاصة القول فإنَّ إصلاح الأجواء الفاسدة والمسمومة ومحاربة نشر الفساد والتجاهر به يُعَدُّ من إحدىٰ وسائل الوقاية من الانحرافات الخلقية، وبدونها قَلَّما يتوقف الإنسان لإصلاح ذاته أو الآخرين بصورة تامّة.

وكما يجب في مكافحة الأمراض الجسميّة محو بُؤَر الجرائم وتطهير المحيط، والحدّ من تلوث الماء والهواء والغذاء يجب أيضاً تطهير البيئة الاجتماعيّة من التلوُّث بالانحرافات الخلقية والرذائل.

٣ ـ الهجرة والفرار من البيئات الملوثة:

يجب السعي بأقصىٰ حد لإصلاح المحيط الفاسد والملوث فلو تعسر ذلك لأسباب معينة، وخيف من التلوث في حالة البقاء، فمع وجود المحيط الأنقىٰ وإمكانية الهجرة إليه فلا حيلة سوىٰ الهجرة.

والقضيّة نفسها موجودة في الأمراض الجسميّة، إذ يسارع الأفراد الذين يحرصون علىٰ سلامتهم إلىٰ الهجرة في مثل هذه الظروف.

والهجرة في الإسلام ذات أهميّة خاصّة، واللطيف أنّها تعتبر أول خطوة من تاريخ الإسلام، إذ لم تكن هجرة نبي الإسلام محمّد ﷺ من مكّة إلىٰ المدينة إلاّ فراراً من بيئة ملوثة وفاسدة وغير ملائمة إلىٰ بيئة أخرىٰ أفضل لنشر الإيمان والفضيلة.

وتعتبر هجرة مجموعة من المسلمين الرساليين من مكة إلىٰ الحبشة، امتثالاً لأوامر النبي ﷺ مثلاً آخر في هذا الموضوع.

ولقد تميَّز المهاجرون الأوائل في صدر الإسلام وذكرهم التاريخ الإسلامي باهتمام ونزلت بشأنهم آيات عديدة في القرآن الكريم. وقد وردت أحاديث كثيرة تحثّ علىٰ الهجرة من البيئات الملوثة بالمعاصي والذنوب كالشرك إلىٰ البيئات السليمة، مما يُوضّح أهمية هذا الموضوع.

وقد جاء في مجمع البيان بشأن تفسير ذيل الآية (١٠٠) من سورة النساء: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجدْ في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة﴾ نُقِل عن الرسول محمد ﷺ أنّه قال: «من فرّ بدينه من أرضٍ إلىٰ أرض وإن كان شبراً آستوجب الجنّة وكان رفيق إبراهيم ومحمّد ﷺ».

وعبارة (وإن كان شبراً) تدلّل علىٰ أهمية الموضوع، والسرّ في مرافقة هذين الرسولين العظيمين هو إقدامهما علىٰ الهجرة، فقد هاجرَ إبراهيم عليه السلام من بابل عاصمة النمرود وعبدة الأصنام إلىٰ فلسطين، والرسول ﷺ من مكّة إلىٰ المدينة.

وقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم لذيل الآية (٥٦ ـ العنكبوت): «يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعةٌ فإيايَ فاعبدون» أن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال: «لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتوهم أن يفتنوكم عن دينكم ـ فإنَّ أرضي واسعة ـ».

وتأكيد الإسلام، من خلال قوانينه، علىٰ عدم المشاركة في مجالس السوء والمعاصي، وعدم الخلوة بالأجنبيّة، وما شاكل ذلك يُعَدُّ نوعاً من الهجرة القصيرة من منطقة الذنب والزلل، وذلك لأجل الوقاية من تفشّي الرذائل.

الفصل الثاني

الصفات الأخلاقية الرباعية في عقيدة القدماء

يحسن في البداية أن نلقي نظرة سريعة علىٰ أسس علم الأخلاق من وجهة نظر علماء هذا الفن، ثم ندقّق في بحوثهم الأخلاقية بصورة مجملة.

وقد لخّص علماء الأخلاق أجناس الفضائل الأخلاقيّة في أربعة أقسام، هي:

١ ـ الحكمة.

٢ ـ العفة.

٣ ـ الشجاعة.

٤ ـ العدالة.

واعتقدوا بأنَّ كل واحدة من هذه الفضائل هي حدّ وسط بين الإفراط والتفريط في الغرائز والقوىٰ النفسيّة، وعليه فالرذائل الأخلاقية تقع علىٰ طرفيهما؛ لأنَّ بإزاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة علىٰ النحو التالي:

١ ـ الحكمة: وهي الاعتدال في معرفة حقائق الموجودات علىٰ ما هي عليه، وبإزائها في طرف الإفراط «الجربزة» وهي إعمال الفكر في ما لا ينبغي أو في الزائد عمّا ينبغي والاعتماد علىٰ الاحتمالات

والتشكيك، وعدم الثبوت علىٰ النظريات الصحيحة، وفي طرف التفريط «البله» وهو تعطيل القوة الفكرية وعدم استعمالها في ما ينبغي أو في أقل منه.

٢ ـ العفة: وهي انقياد القوة الشهوية للقوّة العاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه، حتىٰ تكتسب الحرية وتتخلص من أسر عبودية الهوىٰ، وبإزائها في طرف الإفراط «الحرص» و«الشره» وفي طرف التفريط «الخمود».

٣ ـ الشجاعة: وهي إطاعة القوة الغضبية للقوة العاقلة في الإقدام علىٰ الأمور المهولة، وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها، حتىٰ يكون فعلها ممدوحاً وصبرها محموداً أيضاً، وبإزائها في طرف الإفراط «التهوُّر» وفي طرف التفريط «الجُبن».

٤ ـ العدالة: وهي انقياد قوتي الغضب والشهوة للقوة العاقلة وضبطها وحملها علىٰ مقتضىٰ الحكمة، وبإزائها «الظلم» في طرف الإفراط و«تحمّل الظلم وتمكين الظالم منه» في طرف التفريط.

وقد اعتقدوا بأنَّ الرذائل غير متناهية، في حين أن الفضائل بمنزلة الأوساط، والوسط واحد معيّن لا يقبل التعدُّد، فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز إلىٰ المحيط، فالمركز نقطة واحدة معينة، والرذائل سائر النقاط المفروضة من جوانبه غير المتناهية.

وقد شبّهوه بالخط المستقيم بين نقطتين الذي لا يكون إلاّ واحداً دائماً، وأمّا الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية.

وقد نقل عن العلامة الطوسي (ره) وجماعة آخرين أن معنىٰ الصراط المستقيم الوارد في الأخبار والأحاديث أنه «أدق من الشَّعرَة وأحد من السيف» هو الاعتدال في الصفات الأخلاقيّة.

وقد فسَّر البعض الآخر من علماء الأخلاق هذا الموضوع بأنه

لكون عالم الآخرة هو في الحقيقة تجسُّم للأخلاق والصفات المكتسبة في هذه النشأة، فإنَّ الصراط هو صورةٌ لتوسُّط الملكات الأخلاقيّة المكتسبة في هذه النشأة.

والآن ينبغي معرفة منشأ هذا التقسيم الرباعي. وقد أجاب علماء الأخلاق عن هذا السؤال، وقالوا: إن للنفس الناطقة ثلاث قوىٰ هي:

١ ـ قوة الإدراك.

٢ ـ القوّة الشهوية أو (الجاذبة).

٣ ـ القوّة الغضبيّة أو (الدافعة).

واعتدال كل واحدة من هذه القوىٰ الثلاث يحصل له ما يخصّه من الفضيلة التي تُدعىٰ بالحكمة والعفة والشجاعة علىٰ التوالي.

ولو انقادت قوتا الشهوة والغضب لقوة التمييز والإدراك حصلت العدالة.

وبعبارةٍ أخرىٰ، فإنَّ تعادل كل من القوىٰ الثلاث المذكورة يُعَدُّ فضيلةً، ولكن من دمجها ببعضها كانقياد قوتي الشهوة والغضب لقوة الإدراك تحصل فضيلةً أخرىٰ. فقد يمكن أن يقدم الإنسان علىٰ الأمور الهائلة ويخوض الحروب العظيمة ولا يُبالي بالقتل أو الطعن أو الجراح، وهذه شجاعة، ولكنها يمكن أن تستعمل في طرق مغلوطة كالقتال لأجل أهداف منحطة لا قيمة لها، فتكون حينئذٍ شجاعة مجردة من العدالة، وقد تستعمل في طريق هدفٍ عقلاني سامٍ بمقتضىٰ الحكمة فتحصل العدالة.

* نقد وتحليل:

إنَّ الأسس التي اعتمدها علماء الأخلاق المتقدمون لتصنيف الفضائل والرذائل والتي شرحناها في بحثنا السابق، علىٰ الرغم من أهميّتها، لكنها لا تخلو من الإشكالات التالية: ـ

١ ـ توجد بعض الملكات الأخلاقية التي يتعسَّر درجها تحت واحدة من تلك الأسس الأربعة.

فمثلاً يصعُب درج الإيثار والتضحية والمودّة في زمرة العفّة، فقد يمكن أن تكون الشهوات معتدلة في شخصٍ معين، لكنّه لم يبلغ مرتبة الإيثار والتضحية والمودّة في الوقت نفسه، أي أنه لا يتعدّىٰ علىٰ حقوق الآخرين ولا يرضىٰ بإيذائهم، وفي الوقت نفسه نراه مجرّداً من الإيثار والتضحية.

وكذلك لا يمكن أن يُعَدَّ حسنُ الظن من الحكمة؛ لأنَّ حسن الظن يختلف عن التشخيص الصحيح.

ولعل الإصرار علىٰ هذا التقسيم الرباعي ناجم من طريقة تفكير القدماء حينما اعتقدوا برباعية الكثير من الموضوعات. فكانوا يعتقدون بأن العناصر الأساسية أربعة، والأجزاء المركّبة للبدن أربعة، ويُقَسّمون المزاج إلىٰ أربعة أنواع، والأمراض الجسميّة إلىٰ أربعة أنواع، وعلاجها أحد أنواعٍ أربعة، في حين أنه قد ثبت لنا اليوم أن أياً من هذه التقسيماتِ الرباعيّة غير صحيح. وبٱعتقادنا إن تقسيم الأخلاق الفاضلة إلى أربعة أقسام هو من هذا القبيل.

٢ ـ إنَّ عدَّ الحكمة من الفضائل الأخلاقية الأساسية، وما يقابلها من الرذائل، ليس صحيحاً تماماً؛ لأنَّ الملكات الأخلاقية هي بإزاء قوة الإدراك وتعاملها مع الميول والعواطف والغرائز، وليس مع المدركات، لذا فإنه لا يمكن وصف الذكاء بأنّه من الأخلاق الحسنة.

٣ ـ الإصرارُ علىٰ أن جميع الملكات الأخلاقية الفاضلة هي أوساط معتدلة بين الإفراط والتفريط يفتقر إلىٰ الدليل أيضاً. فعلىٰ الرغم من صحة هذا الرأي في بعض الحالات، إلاّ أنه غير صحيح في حالات أخرى، فٱعتبار الحكمة مثلاً حداً وسطاً في فهم وتحليل حقائق الأمور ليس صحيحاً؛ لأن التحايل لا ينبع من كثرة الفهم والذكاء؛ لأنَّ الإفراط في العلم لا معنىٰ له، بل هو نوع من عدم

النضوج الفكري والانحراف الذهني وعدم الفهم الصحيح.

وأيضاً فإنَّ جعلَ تحمُّلِ الظلم إفراطاً في العدالة ليس صحيحاً؛ لأنَّ الإفراط في العدالة لا معنىٰ له، فلو كان تحمُّل الظلم من جهة الخمود والكسل لصار بإزاء العفّة، ولو كان بمعنىٰ الخوف من إحقاق الحق لصار تفريطاً في القوة الغضبية وعلىٰ أيّة حالٍ فلا معنىٰ للإفراط في العدالة سيّما وأنَّ معنىٰ العدالة انقياد قوتي الشهوة والغضب للقوة العاقلة، فيكون الإفراط في هذا الانقياد لا معنىٰ له.

ومن ثم فإنَّ اعتبار الملكات الأخلاقية الفاضلة أوساطاً علىٰ الرغم من صحته في بعض الحالات كالشجاعة والعفّة، إلاّ أنّه لا يمكن تعميمه؛ إذ لا يصحّ ذلك في ملكتي العدالة والحكمة.

ونستنتج مما ذكرناه أعلاه أن تقسيم الفضائل والرذائل الأخلاقية إلىٰ أربعة أقسام لا يفتقر فقط إلىٰ الدليل الواضح فحسب، بل هو لأسباب أخرىٰ محلُّ إشكالٍ.

فالصحيح أن لا نحصر الفضائل الأخلاقية بأربعة أقسام بل هناك فضائل ورذائل بعدد الغرائز والميول والعواطف المختلفة المكنونة في وجود الإنسان، وتعديل وتربية كل واحدة من هذه الغرائز والميول والعواطف بشكلٍ يساعد علىٰ تكامل الفرد أو المجتمع يُعَدُّ فضيلةً، وانحراف كل واحدة منها بشكل يؤدي إلىٰ انحطاط الفرد أو المجتمع يُعَدُّ رذيلة.

لذا فإنَّ عدد الفضائل والرذائل بعدد الغرائز والميول عند الإنسان كما أنَّ عدد العوامل المسببة للأمراض الجسميّة بعدد أجهزة البدن المتنوعة وأجزائها المركّبة لها.

وقد وَرَدَ في أحاديث وروايات أهل البيت عليهم السلام عدد كبير من الفضائل الأخلاقية يزيد كثيراً علىٰ الأربع المذكورة، فمثلاً ما جاء في الحديث المعروف المنقول في بداية أصول الكافي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام حول جنود العقل والجهل، إذ عدَّ جيوش العقل

والجهل خمساً وسبعين، يعتبر أكثرها من الفضائل أو الرذائل الأخلاقية.

والجدير بالذكر أن التعبير بالجند والجيش ذو معنى غني، يفصح عن أن الغرائز والعواطف هي في الحقيقة وسائل وأدوات بيد القوة العاقلة التي بواسطتها تُحلُّ المعضلات؛ لأنها مُسَيّرة لوجود الإنسان.

*** معيار قياس الفضائل والرذائل:**

إن المفاهيم الأخلاقية ليست جميعها مفهومة وواضحة، بل البعض منها كالشجاعة والسخاء والتضحية... الخ، بدرجةٍ من الوضوح بحيث لا يتردّد أحد في كونه فضيلةً، وبإزاء هذه الفضائل تأتي صفات الخوف والبخل والأنانية حسب الترتيب والتي تُعَدُّ من الرذائل الواضحة.

ولكن في البعض الآخر من الصفات اختلاف وجدال في كونها فضيلة أم رذيلة. ولذلك فبدون امتلاك مقياس واضح للتشخيص لا يمكن بحث المسائل الأخلاقية.

فعلىٰ سبيل المثال يعتقد بعض العلماء الماديين اليوم كـ «برتراند راسل» أن «ليس لدينا مبررٌ لشجب أي عمل لا يضرّ بالآخرين ولا يمكننا شجب عمل السلبيات الموجودة في السنن القديمة بحجة أن المذهب الفلاني قد قبّحه، بل يجب حساب ضرر وفائدة ذلك العمل وأخذه بنظر الاعتبار».

وقد جوَّز هذا العالم المذكور، وفقاً لهذه العقيدة، الكثير من الأخلاق والأعمال المشينة بحجة أنها لا تضرّ الآخرين كالزنا واللواط في حالة رضا الطرفين!.

واعتقد جماعة أخرون من الماديين كالشيوعيين بأن أسس الأخلاق القديمة ناشئة من الاقتصاد الرأسمالي، وأنها زائلة بزواله، لذا فهم يعتقدون بأن الأخلاق تنحصر بالأمور التي تدعم ثورة العمال (البروليتاريا).

وتشير بعض آراء الذين ليس لهم مذهب معيّن، حول بعض الصفات الأخلاقية، بأننا في أمس الحاجة لوضع معيار واضح لهذه الأمور.

لذا يجب ملاحظة ماهية معيار القياس والتشخيص في هذه الأمور لكي نتمكن من تشخيص فضيلة عمل ما أو رذيلته.

ولو أردنا أن نتناول هذه المسألة من الناحية الدينية والمذهبية فإنَّ تكليفنا واضح جداً، فبعد أن عرفنا أحقيّة الإسلام بأدلّة قاطعة، فإنَّ هناك أسانيد معتبرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تمكننا من تقييم أسس الفضائل والرذائل الأخلاقية.

وأمّا الدليل العقلي فينبغي علينا أن نأخذ المعيار التالي بنظر الاعتبار بوصفِه وحده قياس: أي عمل يساعد الإنسان في الرقيّ والتكامل فهو فضيلة وأي عملٍ يجرّه نحو الإنحطاط فهو رذيلة.

ولكن يجب الحذر من دراسة الإنسان من جانبه المادي والمستلزمات الأولية لهذه الحياة فقط، بل يجب أخذ الجوانب المعنوية والروحيّة بنظر الاعتبار، والتي يتلخص فيها امتياز الإنسان، وجعل الأمور الماديّة وسيلةً لبلوغ الغرض.

فقد لا يتسبب عملٌ قبيحٌ ما في الإضرار بحقوق الآخرين، ولكنه يؤدي إلىٰ انحطاط وسقوط الشخص المرتكب له من ناحية الجوانب الإنسانية والمعنوية، فبديهي أن يُعدَّ هذا العمل من الرذائل.

والذين ينظرون إلىٰ الجوانب الماديّة فقط عرفوا نصف أو أقل من نصف وجود الإنسان في الحقيقة، في حين ينبغي بحث الأسس الأخلاقية علىٰ أساس المعرفة التامّة بوجود الإنسان التي تشمل الروح والجسد.

والأسوأ من هذا فإن الأخلاق الشيوعية لم تهمل الجوانب المعنوية للإنسان فقط، بل تناولت الجوانب الماديّة من زاوية الاقتصاد فقط واهتمت به ونظرت إليه من هذه الزاوية.

وبديهي أن أمثال هذه المذاهب، لكونها غير مشبعة بالنظرة الواقعية وبالمعرفة الصحيحة للإنسان، عاجزة عن اتخاذ خطوات صحيحة، ومن المُسَلَّمْ به أنهم سوف يتورطون بأخطاء فادحة في طريق معرفة الفضائل والرذائل الأخلاقية.

لذا فالأساس العقلائي والمنطقي الصحيح لمعرفة الصفات الأخلاقية هو ما ذكرناه سابقاً، فينبغي لنا دائماً أن نأخذ تكامل الإنسان، من جميع الجوانب، بنظر الاعتبار، ونميّز العوامل المساعدة علىٰ ذلك من غيرها، ونبحث الفضائل والرذائل علىٰ هذا الأساس.

* أثر العزلة والانزواء في الأخلاق:

هل يمكن تهذيب النفس والحصول علىٰ الفضائل الأخلاقية بالمشاركة في الحياة الاجتماعية بصورة أفضل، أم في العزلة والانزواء؟

اعتقد جماعة بأن سلامة أخلاق الإنسان مرهونة بانزوائه وعزلتهِ، لأن الكثير من الانحرافات الخلقية أو أكثرها تنشأ عند التعامل مع الآخرين، فالحسد والتكبُّر والكذب والغيبة والبهتان والرياء والحقد وغيرها تصيب الإنسان نتيجةً لاختلاطه بالآخرين. فالذي لا يتعامل مع الآخرين لا يغتاب ولا يستمع الغيبة، ولا يَحسدْ ولا يُحسَدْ من قبل الآخرين، ولا يُبتلىٰ بالرياء أو الكذب أو الحقد أو سوء الظن.

وجماعة العزلة والانزواء، الذي يُشاهد من بينهم قسم من علماء الأخلاق وجماعة من الزهّاد والعبّاد المعروفين، يستدلون علىٰ فضيلة هذا العمل وأثره في تهذيب الأخلاق بأدلّة أخرىٰ علاوة علىٰ الدليل الذي ذكرناه.

فهم يقولون: إن الإنسان يتفرغ لعبادة ربّه في العزلة بصورة أفضل، ويناجي ربّه ويدعوه علىٰ حالةٍ من حضور القلب.

ويستطيع أن يتفكّر في أسرار الكون وفي أنواع العلوم بصورة أفضل ويميّز الحقائق عن غيرها.

فالحب والبغض والمشاجرة والجدال والمراءاة التي تمنع من درك الحقائق والوقائع تقل في الانزواء، لذا نجد أن الكثير من المفكرين الكبار قد قضّوا حياتهم بالعزلة والانزواء.

وعلاوةً علىٰ هذا فإن الإنسان يواجه مواقف، أثناء المعاشرة ومخالطة الناس، غالباً ما تجلب له أعباء ثقيلة، وكثيراً ما يصادف أن يتقاعس في أدائها، فينحرف بالنتيجة، فمثلاً غالباً ما نواجه، في معاشراتنا وحياتنا الاجتماعية المنكرات والمعاصي وحالات ترك المعروف التي توجب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن ننهض لمكافحتها، في حين أننا غير واثقين من إمكانية أداء واجبنا المفروض في هذا الموضوع. فالأفضل أن نختار العزلة لنتخلّص من أعباء مثل هذه المسؤوليات!

وعلاوة علىٰ جميع ذلك فقد ورد استحسان العزلة في بعض الآيات القرآنية الكريمة والروايات الشريفة نذكر بعضها كأمثلة:

١ ـ «فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكُلاً جعلنا نبياً». تشير هذه الآية إلىٰ أن جعل النبوّة في ذرية إبراهيم عليه السلام كان أثناء عزلته عليه السلام.

٢ ـ «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلاّ الله فأووا إلىٰ الكهف ينشر لكم ربكم من رحمتهِ».

تدل هذه الآية الشريفة علىٰ أن أصحاب الكهف قد شُمِلوا بلطف الباري عز وجل بعد أن اعتزلوا الناس والمجتمع.

٣ ـ «قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله أي الناس أفضل؟ قال مؤمنٌ مجاهدٌ بنفسهِ في سبيل الله تعالىٰ، قيل: ثم من؟ قال: رجلٌ معتزلٌ في شعب من الشعاب يعبد ربّه ويدع الناس من شره»[1].

---

(١) إحياء العلوم ـ عن أبي سعيد الخدري، متفقٌ عليه.

لقد امتدحت هذه الرواية منزلة العزلة والانزواء وجعلتها في الرتبة التي تلي الجهاد في سبيل الله.

٤ ـ روي في مصباح الشريعة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «صاحب العزلة متحصّنٌ بحصن الله ومحترس بحراسته، فيا طوبىٰ لمن تفرّد به سراً وعلانية».

* أضرار العزلة والانزواء:

بإزاء منافع وفوائد العزلة التي ذكرناها، فإن فيها أضراراً عديدة، بينما هناك فوائد جمة في المعاشرة والمخالطة يمكن اتّخاذها أدلة علىٰ أفضلية المعاشرة وفضيلتها:

١ ـ إنَّ أول ما يوضّح أهمية وقيمة المعاشرة هو أن اكتساب أغلب الملكات الأخلاقية الفاضلة يتيسّر في المجتمع فقط؛ لأنَّ أغلبها يرتبط بنوعيّة العلاقة بالآخرين. فالتواضع والمحبّة والإيثار والعفو والتسامح والسخاء والحلم وكظم الغيظ والعطف والتراحم وضبط النفس وغيرها من الملكات، تظهر أثناء التعامل مع الآخرين، واكتسابها يحتّم الحضور في قلب المجتمع.

وإضافةً إلىٰ هذا فإنَّ السلامة من الرذائل الأخلاقية، كالحسد والتكبُّر والكذب والغيبة وما شاكل، عن طريق العزلة والانزواء، ولا يُعَدُّ فضيلةً وفخراً في الحقيقة، بل إنها منتفية بأنتفاء الموضوع، كأن يتخلَّص أحدٌ من الزنا عن طريق جبّ عضوه. فهذا الشخص سوف يكون في مأمن من الوقوع في هذه الرذيلة، ولكن هذا النوع من الطهارة لا يُعَدُّ فضيلة بل سلامةً. فالفضيلة هي أن يعيش الفرد في قلب المجتمع، ويصل في اللحظات الحرجة إلىٰ هاوية السقوط، ولا يفقد السيطرة علىٰ نفسه ويرجع، كما رجع نبي الله يوسف عليه السلام (بشرط أن لا يتعمّد الفرد إيجاد مثل هذه المواقف).

لذلك فلا سبيل لتحصيل الملكات الفاضلة، والتي تعتبر معيار

القيم الإنسانية، إلاّ بالحياة الاجتماعية والاختلاط مع الناس.

وبعبارة أخرىٰ، إنَّ هذه الفضائل البارزة تحصل عن طريق مخالفة الهوىٰ وعوامل الفساد، كما أنَّ جذوع أشجار الصحراء تتصلّب بترعرعها في العواصف والحوادث الصعبة، فلو ترعرعت في مكان مغلقٍ محدود لفقدت تلك الصلابة، فالمنعزلون سوف يفقدون قدراتهم الروحيّة والأخلاقيّة بالتدريج.

ولعلّ الحديث التالي يشير إلىٰ هذه الحقيقة:

«صعد أحد المسلمين إلىٰ شعب من الشعاب واعتزل الناس، فجيء به إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له: لا تفعل أنت ولا أحدٌ منكم، لصَبرُ أحدكم في بعض مواطن الإسلام خيرٌ من عبادة أربعين عاماً».

فيتّضح من هذا الحديث بطلان الاستدلال الأول لجماعة العزلة والانزواء.

٣ ـ إنَّ الوحدة والانزواء مصدرٌ لكثيرٍ من الانحرافات الفكرية والذوقية، لأن الإنسان، مهما كان مُفكّراً وصاحب ذوقٍ مصيب، فإنَّ له أخطاء لا تظهر إلاّ بالتعامل مع الآخرين، وسوف يلتفت إليها بصورة أسرع، أمّا في زاوية العُزلة، وبسبب انسداد طريق الإصلاح، فسوف يواصل الإنسان طريق الانحراف كالتائه الذي لاتزيده مواصلة المسير إلاّ بُعداً، فقد تصير الفكرة الانحرافية وحدها أساساً لاستنباطات أخرىٰ، وبالتدريج تغزو فكره مجموعة من الاشتباهات التي تحطُّ أفكاره بصورة تامّة.

ومن هذه النقطة يتضح ردّ الاستدلال الثاني لجماعة العزلة والانزواء. عندما يقولون: إن التفكُّر في معزَلٍ أسهل منه في الاختلاط؛ إذ تبيّن لنا أنَّ خطر الانحراف يهدّد الفرد في الوحدة أكثر منه في الاختلاط.

٣ ـ والنقص الكبير الآخر الذي يصيب الإنسان في العزلة هو

العُجب، فالإنسان بدافع غريزة حب الذات يحب نفسه ومتعلّقاتها أكثر مما ينبغي، وهذ الغريزة تعمل في الحقيقة كعدسَةٍ مكبّرة، وطبقاً لقدرتها التكبيرية، تقوم بتكبير أعمال وأفكار الإنسان في نظره بصورةٍ أكبر مما هي في واقعها. إضافةً إلىٰ دورها في تقليل عيوب الإنسان في نظره لدرجة أصغر ممّا هي عليه. واجتماع هذين الجانبين يولد العجب والتكبُّر ويُعَدُّ محيط العزلة والانزواء محيطاً مساعداً جداً علىٰ تنمية بذرة هذه الرذيلة. ويستطيع الإنسان بمعاشرتهِ واختلاطه بالآخرين، أن يعرف قدر نفسه علىٰ ما هي عليه، فيطّلع علىٰ الميزان الصحيح لكمالاته وفضائله، ويعرف عيوبه، بمواجهة من هم أكمل منه أخلاقاً، مما يؤدي إلىٰ قلع جذور العجب من نفسهِ أو تقليلها إلىٰ أدنىٰ حدّ ممكن.

لذلك فكثيراً ما نرى أن يدّعي الأفراد المنعزلون إدعاءات كبيرة أو عجيبة أحياناً، تفصح جميعها عن حالة العُجب والكبرياء التي تعتريهم.

ويتّضح من هذا فائدة أخرىٰ من الفوائد الجمّة لحالة المعاشرة والاختلاط بالآخرين، وهي معرفة عيوب النفس، ويُعَدُّ الآخرون خصوصاً اعداءَنا مرآة جيدة تعكس عيوبنا، ولعلّنا بدونها لا نطلع على الكثير منها إلىٰ الأبد، فلو كُنّا منعزلين لتحطّمت هذه المرآة، واتّخذت نفوسنا صورة من لم يعرف المرآة أبداً.

٤ ـ سوء الظن بالآخرين:

يُعَدُّ سوء الظنّ بالآخرين عيباً آخر من عيوب العزلة، وهو في الحقيقة ناجمٌ عن العُجب الذي يصيب أمثال هؤلاء الأفراد؛ لأنَّ الإنسان بعد أن يصاب بالتكبُّر الشديد ويفرط في الاعتداد بالنفس، وعدم مشاهدته للانعكاس المناسب من الآخرين بقدر ما يتوقعه هؤلاء الأفراد، تنشأ لديه فكرة تدريجية أن الناس مخطئون في تعاملهم ويكنّون المكر والحيلة وغير ملتزمين بالقيم، وأمثال هؤلاء من ناكري الفضل

والجميل والمغرضين وغير المهتمين بالفضائل ضالّون ومنحرفون، ولا يستحقون أيّ نوع من المعاشرة والاختلاط.

وبناءً علىٰ هذا سيصير الانزواءُ دافعاً للمضي في هذا الطريق وتقوية هذه الروحية وزيادة الابتعاد عن الآخرين.

٥ ـ سوء الخلق والعصبية:

يترعرع الأفراد المنعزلون، سيّئي الخُلُق ومفرطين في القوة الغضبيّة، ولا صبر لهم في الصدمات مع الآخرين وقد ينزعجون من أقل شيء أو عبارة لا توافق رغباتهم، ويبدون ردود فعل عنيفة وبالطبع لا يمكن تعميم هذه المسألة، لكنها تصح في كثير من الحالات.

ومقابل ذلك نجد اللّين والهدوء والأخلاق الحسنة في الذين يعاشرون غالباً، ودليل هذا واضح أيضاً؛ لأنَّ التحمل وسعة الصدر مَلَكَة تحصل من مواجهة المضجرات وتعوُّد الروح عليها، ولكونِ الحياة الاجتماعية ممزوجة بالمواقف المزعجة فإنها تنمّي حالة سعة الصدر لدىٰ الإنسان تدريجياً.

وعلاوةً علىٰ هذا، فغالباً ما يكون المنعزلون قليلي النشاط والضحك والمزاج والتنزه عند التعب، وحياتهم متعبة لا تعرف التغيير، مما يؤثّر في نفوسهم ويخلق فيها نوعاً من الضجر. ولو وُجِدتْ العقد النفسيّة لتولدت حالة القلق والضجر النفسي المستمر لديهم، وذلك لانعدام الحلول، مما يزيد من توترهم العصبي وأخلاقهم السيئة.

٦ ـ الحرمان من العلوم والتجارب:

إنَّ الكثير من العلوم يُستحصل عليها من ألسنة العلماء ومناهجهم وتُسْتَلْهم من طرقهم في التفكير، وهذا لا يتحقق إلاّ بالمعاشرة.

أضف إلىٰ ذلك أن النضوج والتجربة لا يمكن الوصول إليهما

في زاوية العزلة والانزواء، بل بالحياء في قلب المجتمع، وكما نعلم جميعاً فإنَّ ثمرة الحياة الاجتماعية السليمة ما هي إلاّ التجارب المفيدة.

وبالرجوع إلىٰ الحقائق التي ذكرناها في خصوص فوائد وأضرار كل من المعاشرة والانزواء، تتضح لنا أفضلية وأرجحية منطق المعاشرة بصورة كاملة.

والجدير بالذكر علىٰ الرغم من أن الأساس في حياة أي فرد يجب أن يكون هو المعاشرة والاختلاط بالآخرين، فإن هناك حالات استثنائية لا علاج لها إلاّ الانزواء وقطع المعاشرة أو تقليلها علىٰ الأقل. كأن يعيش الإنسان في بيئات فاسدة ومنحطّة جداً، بحيث لا ينجم عن المعاشرة سوىٰ التلوث والانحراف، فبديهي يتحتم عليه الفرار من مثل هذه المجتمعات كما يفرّ من الأمكنة الموبوءة.

وكان اعتزال إبراهيم عليه السلام أو اعتزال أصحاب الكهف شيئاً من هذا القبيل أيضاً.

قال الإمام الصادق عليه السلام لسفيان الثوري: «فسد الزمان وتغيّر الإخوان فرأيتُ الانفراد أسكنَ للفواد»... (سفينة البحار - باب الاعتزال).

ويُعَدُّ هذا جواباً واضحاً ورداً لكثير من أدلّة جماعة العزلة.

وكذلك تستحب العزلة والانزواء في الحالات التي يكون الإنسان فيها ذا أخلاق سيئة لا يمكنه تركها، لكي يقي الآخرين سوء خلقه، ولعل حديث الرجل المعتزل في شعب من الشعاب، الذي ذكرناه سابقاً ضمن أدلّة أصحاب العزلة، يشير إلىٰ هؤلاء الأفراد.

والنقطة الأخرىٰ التي يجدر بنا ذكرها هنا هي أن الإنسان في الوقت الذي يعاشر فيه الناس ويختلط بهم ينبغي عليه أن يخصص بعض ساعات ليله ونهاره ليختلي فيها بربّه، ويتفكّر ويتعمق في عواقب

الأمور، ويفرغ لعبادة ربّه ويتوجّه بصورة تامّة لخالقه، وقد كانت لكثير من علمائنا ساعات كهذه في برامجهم اليومية، وقد يمكن أن يكون هذا معنىٰ العزلة المقصود في بعض الروايات أيضاً.

لذا فالمبدأ الأول في حياة الإنسان هو المعاشرة والمخالطة، أمّا العزلة والانزواء فلها أوقاتها الخاصّة.

❀ ❀ ❀

*** المراقبة والمحاسبة:**

أكّد علماء الأخلاق في مؤلفاتهم وجوبَ الالتزام بهذين المبدئين لتحصيل الملكات الأخلاقية الفاضلة والنجاة من الرذائل. ومن البديهيّ أنه لا يمكن طيّ منازل السلوك والتكامل الروحي والأخلاقي بدونها.

فالمراقبة هي الملاحظة الكاملة لكيفية الأعمال قبل صدورها.

والمحاسبة هي دراسة نتائج وآثار الأعمال بعد صدورها.

فقد يمكن أن تؤدي غفلة بسيطة في إحدىٰ هاتين المرحلتين إلىٰ توريط الإنسان بمصير مظلم لا يمكنه التخلص منه بسهولة.

وشأن روح الإنسان في هاتين المرحلتين كجسمه، فكما يضطر، لأجل حفظ السلامة الجسميّة؛ لأن يقوم ببعض المراقبات الصحيّة، فيدقق في طعامه قبل تناوله أو الأمور التي يحتمل أن تصير بؤرة للأمراض المختلفة، قبل أن يسكن في أي مكان، وقد يضطر للتلقيح للوقاية من بعض الأمراض، وقد يضطر للعمل بأنظمة غذائية معينة، وأحياناً قد يضطر لأن يعرض نفسه علىٰ أطباء بارعين لإجراء فحوصات طبيّة دقيقة. كما يجب عليه بعد الإصابة بالأمراض والتخلص منها أن يلجأ إلىٰ تقوية بنيته الجسدية لتعويض النواقص ومحو آثار المرض الخبيثة.

فكذلك ينبغي رعاية جميع تلك الأمور لمحاربة الانحرافات

الخلقية وتحصيل السلامة الروحيّة. وبصورة عامّة ينبغي لمن يريد تحصيل الملكات الأخلاقية* الفاضلة، أن يراعي النقاط التالية:

١ ـ أن يراقب نفسه بصورة دائمة، وأن يعلم أن الله يراه علىٰ كل حال، قال تعالىٰ: ﴿أفمن هو قائمٌ علىٰ كل نفسٍ بما كسبت﴾[١]

وقال أيضاً: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾[٢]

وقال رسول الله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والملفت للنظر أن هذا الحديث قد جاء في تفسير كلمة الإحسان الواردة في الآية الشريفة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ أي أن المراقبة مصدر جميع الفضائل.

٢ ـ أن يفكّر في دافع ونتيجة كل قول أو عمل؛ إذ جاء في الخبر: ﴿إنّه يُنشَر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الأول لِمَ، والثاني كيف، الثالث لمن﴾ (إحياء العلوم، والمحجة البيضاء).

أي يكتب في الأول دوافع العمل، وفي الثاني كيفيته، وفي الثالث القصد والهدف النهائي منه!

من المؤكّد أن ملاحظة مثل هذه الأمور سوف تحجز الإنسان عن المعاصي.

٣ ـ أن يحاسب نفسه في كل يوم بعد أن ينهي أعمالَهُ اليوميّة، بصورة دقيقة، وأن يبادر إلىٰ اجتثاث أثر المعاصي من روحه وقلبه، في حالة صدورها، قبل أن تتأصّل جذورها وتصير ملكة، بأن يفكّر في عواقبها الوخيمة ويلوم نفسه ويعزم علىٰ مراقبتها وضبطها في المستقبل

---

(١) سورة الرعد ـ الآية ٣.

(٢) سورة النساء ـ الآية ١.

بصورة أفضل، وأن يعوّض تلك المعصية التي ارتكبها أو يتبعها بالحسنات ليعيد النور والصفاء إلىٰ روحه وقلبه علىٰ ما كان عليه، وشأنه في ذلك شأن الذي يشفىٰ من مرضٍ جسمي، فينبغي له أن ينشغل في تقوية عرىٰ الإيمان في قلبه وروحه وما حقيقة التوبة إلاّ هذه المراحل.

ويُعدُّ موضوع المحاسبة وتعويض العمل ضرورياً إلىٰ درجة أنَّ رسول اللهﷺ قال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مأة مرّة»والواضح بصورةٍ جليّة: ـ أن استغفار الرسولﷺ ليس من الذنوب بل من كيفية أداء الطاعات.



الفصل الثالث

تهذيب اللسان

اللسان مفسّر القلب ومفتاح الشخصيّة:

إنّ تهذيب اللسان والكلام ذو أهميّة بالغة في البحوث الأخلاقية؛ ذلك لأنّ اللسان مفسر القلب، وممثل العقل، ومفتاح شخصيّة الإنسان، وأهم بوّابة تُفتح إلىٰ روحه.

وبعبارة أوضح إن ما يؤثر في روح الإنسان ومن جملتها الظواهر الفكرية والعاطفيّة والشعوريّة يظهر علىٰ اللسان، من خلال كلماته، قبل كل شيء. فلو كان الأطباء السابقون يعزون جزءاً مهماً من اعتدال وانحراف المزاج إلىٰ طبيعة اللسان، فعلماء النفس ـ اليوم ـ يتعرّفون أكثر المسائل النفسيّة من خلال أحاديث الأفراد.

ومن هذه الجهات نجد أن علماء الأخلاق يعيرون أهميّة خاصّة لمسألة تهذيب اللسان ويُعدّونها من علامات التكامل الروحي وتقوية الفضائل والملكات البارزة.

وقد تمّ توضيح هذه الحقيقة في أحاديث أهل البيت عليهم السلام بعبارات قصيرة لطيفة ولعل الجملتين التاليتين المنقولتين عن أمير المؤمنين علي عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام، علىٰ التوالي، شاهدتان علىٰ قولنا هذا:

١ ـ (المرء مخبوءٌ تحت لسانه). وهذا لا يعني الشخصية العلمية فقط بل الشخصية الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية ككلٍ، مخبوءة تحت لسان المرء وسوف تظهر من خلاله.

٢ ـ «لا يستقيم إيمان المرء حتىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتىٰ يستقيم لسانه».

وستتضح أهمية تهذيب اللسان بصورة أفضل عندما نعلم بأن قِسماً كبيراً من الذنوب، والأعمال الصالحة أيضاً، تحصل عن طريق اللسان.

وقد بحث الفيض الكاشاني في محجتهِ البيضاء، والغزالي في إحياء علومه، موضوع آفات اللسان مفصلة جداً. وقد ذكر الغزالي عشرين آفةً للسان هي كالتالي:

١ ـ فضول الكلام.

٢ ـ اللغو والكلام الزائد.

٣ ـ الكلام في الأمور الباطلة كوصف مجالس القمار واللهو والنساء المنحرفات.

٤ ـ الجدال والمراء.

٥ ـ التخاصم والتنازع واللجاجة في الكلام.

٦ ـ التصنُّع في الكلام والتكلُّف في السجع وما شاكل ذلك.

٧ ـ الكلام البذيء والشتم.

٨ ـ اللعن.

٩ ـ الغناء والشعر الفاسد.

١٠ ـ كثرة المزاح.

١١ ـ السخرية والاستهزاء.

١٢ ـ إفشاء أسرار الآخرين.

١٣ ـ الوعد الكاذب.

١٤ ـ الكذب في القول والقسَم.

١٥ ـ الغيبة.

١٦ ـ النميمة.

١٧ ـ النفاق في الكلام (بأن يكون ذا لسانين).

١٨ ـ المدح في غير محلّه.

١٩ ـ الغفلة عن دقائق وآداب الكلام والأخطاء الحاصلة من هذا الباب.

٢٠ ـ أسئلة العوام العقائدية المعقدة التي لا يمكن فهمها.

وغنيٌ عن الذكر أنَّ آفات اللسان وانحرافاته لا تنحصر بما ذكره الغزالي، بل إن ذلك هو القسم المهم منها فقط، ولعلّه لا يخالفنا في هذا الرأي، فالآفات التالية من آفات اللسان أيضاً وقد ذكرها ضمن حديثه:

١ ـ البهتان.

٢ ـ شهادة الزور.

٣ ـ العجب بالنفس.

٤ ـ إشاعة الفحشاء ونشر الإشاعات الكاذبة ولو من جهة الاحتمال.

٥ ـ فظاظة اللسان.

٦ ـ الإلحاح في غير محلّه (كما فعل بنو إسرائيل).

٧ ـ جرح كرامة الآخرين باللسان.

٨ ـ ذمٌ من ليس أهلاً للذم.

٩ ـ الكفر بالنعمة عن طريق السان.

١٠ ـ الإعلام الكاذب والترغيب بالذنب.

ومن كل هذا تتضح أهمية اللسان.

ومن الطبيعي أنه يمكن دمج بعض ما ذُكِرَ أعلاه في الآخر (كوضع الوعد الكاذب وشهادة الزور في باب الكذب)، وقد لا يختص

بعضها باللسان أحياناً كالغيبة وإيذاء المؤمن والكفر بالنعمة فهذه الآفات قد تتحقق باللسان أو بغيره من الجوارح.

ومما لا شك فيه أنه ينبغي بحث ودراسة مسألة تهذيب اللسان بوصفها مسألة أخلاقية مهمة.

وستتضح أهمية الموضوع بصورة أفضل عندما نتنبه إلىٰ أن اللسان أسهل وأبسط وأرخص وسيلة موضوعة تحت تصرف الإنسان، لذا تجب مراقبته بدقة، ومن هذه الناحية يمكن تشبيهه بالمواد المفيدة ذات القوة الانفجارية الشديدة، فكما يراقب الإنسان هذه المواد بدقة وحذر، فإنه يجب عليه دائماً أن يراقب اللسان أيضاً، هذا العضو الحساس.

* الصمت والسكوت:

وبالنظر إلىٰ المخاطر التي يمكن أن تصيب الإنسان نتيجةً لإطلاق العنان للسانه، فقد اعتبر علماء الأخلاق الصمت، في الحالات التي ليس للتكلم فيها ضرورة، طريقاً للوقاية من تلك المهالك العظيمة، وقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة توضح أهمية هذا الموضوع، وبدأ بعض العلماء تهذيب نفوسهم من هذه النقطة.

وعلاوةً علىٰ هذا فإن الصمت يهب الإنسان حالة من التفكُّر والروحانية والبصيرة، ولعل هذا هو السرّ المقصود من سكوت نبي الله زكريّا وتوقف لسانه علامة لاستجابة دعائه بشأن طلب الذريّة، قال تعالىٰ: ﴿قال آيتُك أن لا تكلّمَ الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾... (سورة مريم ـ الآية ١٠).

وأمر مريم عليها السلام بنذر صوم الصمت أو السكوت: ﴿فقولي إني نذرتُ للرحمٰن صوماً، فلن أُكَلّمَ اليوم إنسيّاً﴾... (سورة مريم ـ الآية ٣٦).

وقد نُقِلَ عن حالات رسول الله محمد صلى الله عليه وآله أنه كان، ولأيام متوالية قبل نزول الوحي، يذهب إلىٰ غار حراء ويقضيها بالصمت

والتفكُّر في أسرار الوجود. ويمكن تلخيص فوائد الصمت بالنقاط التالية:

١ ـ يحفظ الإنسان من كثير من الذنوب كما قال الرسول الأكرم محمدﷺ في حديثه القصير والغني: «من صمت نجا»[١] وسبب هذا الأمر واضحٌ أيضاً؛ لأن اللّسان سبب لكثير من المعاصي والذنوب كما قالﷺ: «أكثر خطايا بن آدم في اللسان»[٢].

وعنهﷺ: «إخزن لسانك إلاّ من الخير، فإنك بذلك تغلب الشيطان»[٣].

٢ ـ يحثُّ الإنسان علىٰ التفكُّر، الذي هو مصدر حياته المعنوية، لذا نجد الأفراد الصموتين ذوي علم وفهم نوعاً ما، بعكس الثرثارين حيث نجدهم غالباً قليلي الفهم ويقولُون أكثر ممّا يعملون.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فأدنو منه؛ فإنّه يلقّن الحكمة»[٤].

وعن علي عليه السلام أنّه قال: «إذا تمَّ العقل نقص الكلام»[٥]

ويمكن أن يكون المقصود من هذه المسألة أبعد ممّا ذكرناه، وأن الصمت أفضل وسيلة لإحياء القوىٰ العقلية، إذ أن قوىٰ فكرية عديدة تتبدّدُ أثناء التكلُّم، فلو ذُخِرَت هذه الطاقات لتكونت قوة عظيمة يمكن بواسطتها فهم حقائق كبيرة إضافةً إلىٰ أن الصمت يسكِّن القلب ويُعدّلُ المشاعر.

٣ ـ كثرة الكلام تخلق اللاأُبالية عند المرء، فتُزيد أخطاؤه ويقلِّل حياؤه، ويتحطّم حاجز الحياء، الذي يحصل نتيجة كثرة الخطايا، تتصاغر الذنوب في عين الإنسان كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

---

(١)و(٢)و(٣)و(٤) المحجة البيضاء ـ ج ٥.

(٥) نهج البلاغة ـ الحِكَمْ القصار.

«من كَثُر كلامُهُ كَثُر خطؤه ومن كَثُر خطؤه قلّ حياؤُه، ومن قل حياؤُه قلّ ورعُهُ، ومن قلّ ورعه مات قلبُه، ومن مات قلبه دخل النار»[١]

ولعل هذا هو السر في جعل الصمت من العبادات المهمّة: «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت»[٢].

والجدير بالذكر أن السكوت هنا لم يُقصَد به حالات العزلة والانزواء التي تمحو الذنوب، بل هو نوع من الاحتراز من الذنوب في الحالات التي يُرغب فيها إلىٰ بعض الذنوب كالغيبة والكذب... الخ، فلو اختار الصمت وضبط النفس لحصل علىٰ فضيلة إضافة إلىٰ سلامة النفس.

ولا يخفىٰ علىٰ أحد أن السكوت في الحالات التي يجب التكلُّم فيها يُعَدُّ من أكبر العيوب، ويدل علىٰ ضعف المرء وقلة شهامته وقلة خوفه من الله.

ويجب الانتباه إلىٰ أنّه كما أن اللسان سبب أكثر الذنوب فإنّه أيضاً وسيلة لقِسم مهم من العبادات والأعمال الصالحة كذكر الله، وإرشاد الناس والتربية والتعليم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد باللسان، وغيرها.

---

(١) نهج البلاغة ـ الحِكَمْ القصار.

(٢) إحياء العلوم، ج ٣ ـ عن عيسىٰ عليه السلام.

الفصل الرابع

الصدق أشرف الصفات النفسيّة

لا شكَّ أن صفتي الصدق والأمانة تعتبران من أبرز علائم الشخصيّة، بل لا يمكن تسمية أحدٍ إنساناً واقعيّاً بدونها. وهاتان الصفتان متفرعتان من أصلٍ مشتركٍ واحد؛ لأنَّ الصدق ليس إلاّ الأمانة في الحديث، كما أنَّ الأمانة ليست سوىٰ الصدق في العمل. وسنرىٰ لاحقاً أن آثارهما الاجتماعية متشابهة أيضاً.

ولعلَّ هذا هو السرّ في ذكر «صدق الحديث» و«أداء الأمانة» معاً في أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام.

* أهمية الصدق:

وكما ذكرنا يعتبر الصدق من الصفات البارزة في شخصيّة المرء ومن علائم عظمة فكره وطهارة روحه.

ويمتاز الصادقون بالشجاعة والصراحة والإخلاص والقناعة والتنزُّهِ عن العصبيّات الجاهلية الخاطئة، والحب والبغض المفرطَين؛ لأن الصدق لا يتجرد عن هذه الصفات.

وعلىٰ عكس ذلك الكاذبون فغالباً ما يمتازون بالجبن والرياء والطمع والتعصب واللجاجة أو التورط في الحب والبغض المفرطَين.

فالصادقون يلتزمون في حياتهم بعقائد متينة ويندر أن يكونوا متلونِّين ومُداجين ومتغيري المزاج ومنافقين؛ لأنَّ الصدق ينافي كل

هذه الرذائل، وكما سيأتي في شرح دوافع الكذب، نجد أنه ينبع من إحدىٰ هذه الرذائل المذكورة أعلاه، لهذا يمكن اعتبار الصدق مفتاحاً لمعرفة باطن الأفراد من النواحي المختلفة، وقد اعتبر الأئمة المعصومون، من خلال أحاديثهم، صدق الحديث وسيلة لتقييم ماهيّة الأفراد.

قال الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تنظروا إلىٰ طول ركوع الرجل وسجوده؛ فإنَّ ذلك شيء قد اعتاده، ولو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلىٰ صدق حديثه وأداء أمانته»[1].

وقال تعالىٰ في محكم كتابه الكريم: ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾[2].

* آثار الصدق العظيمة:

إنَّ أكبر خدمة يقدّمها الصدق للناس هي خلق الثقة والاطمئنان في المجتمع، ومن البديهي أن جميع التطورات العلمية والتكنولوجيّة والاقتصاديّة التي توصل إليها الإنسان كانت نتيجة لحياته الاجتماعيّة.

لكن التعاون ووحدة التفكير، اللذان هما أساس الحياة الاجتماعيّة يتيسّران في حالة وجود الثقة والاطمئنان بين الأفراد بصورة تامّة. ولولا ذلك لحدثت مشاكل اجتماعيّة كالتنازع والتنافُس والتخريب، إضافةً للحرمان من فوائد الحياة الاجتماعية!

إنَّ الصدق أفضل وسيلة لخلق الثقة والاطمئنان في المجتمع، ونقيض ذلك الكذب.

فلو كذبت مؤسسة اقتصاديّة معينة في تعريف أحد منتجاتها لظنَّ الناس سوءاً بأحسنها.

---

(١) سفينة البحار ـ نقلاً عن الكافي.

(٢) سورة محمّد ﷺ ـ الآية ٢٩.

ولو كذب المسؤولون السياسيّون لما صدّق الناس بوعودهم وتحذيراتهم ولخسروا القاعدة الشعبيّة العريضة.

ولو راج الكذب في المجالات العلميّة، لانعدمت الثقة بين العلماء وطلابهم، بكلام ونصوص وآراء بعضهم. ولوجب علىٰ كل طالب علم أن يتحمل كافة الجهود، اللازمة لإتمام مشروع علمي معيّن شخصيّاً، ولحُرِمَ من ثمرة جهود آلاف السنين من أعمار الآخرين، ويُعَدُّ الكذب في هذا المجال من أقبح وأقذر أنواع الكذب.

* الكذب مَصْدر لأنواع الذنوب:

ورد في أحاديث كثيرة: أن الصدق يولّد طهارة العمل، والكذب مفتاح لكثير من الذنوب.

وقد يصعب علىٰ البعض فهم هذه الحقيقة التي تُفصح عن أثر الصدق والكذب في سائر أعمال الإنسان. لذا ينبغي توضيحها بصورة أكثر تفصيلاً. فنبدأ بذكر قسم من أحاديث أهل البيت عليهم السلام الواردة في هذا المجال أولاً ثم نقوم بشرحها:

قال علي عليه السلام: «الصدق يهدي إلىٰ البر، والبر يدعو إلىٰ الجنة»[1]

وقال الصادق عليه السلام: «إذا صدق العبد قال الله صدقَ وبرَّ، وإذا كذب قال الله كذب وفجر»[2]

وقال الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «جُعِلَتْ الخبائث كُلُّها في بيت وجُعِلَ مفتاحها الكذب»[3]

ولنبحث الآن أثر الصدق والكذب في أعمال الإنسان:

---

(١) مشكاة الأنوار ـ ص ١٥٧.

(٢) مشكاة الأنوار ـ ص ١٥٦.

(٣) جامع السعادات ج ٢، ص ٣٢٣.

١ ـ الكذب منبع النفاق؛ لأنَّ الصدق معناه تطابق القلب مع اللسان والكذب عدمه، ومن هنا يبدأ الاختلاف بين ظاهر الإنسان وباطنه، وينجرّ الكاذب إلىٰ النفاق الكامل تدريجيّاً «فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلىٰ يوم القيامة بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون» (سورة التوبة، الآية ٧٧).

٢ ـ الكذب أداةٌ لكثير من الذنوب: فالمتلوّنون والمزيّفون واللصوص والخونة والمطفّفون والمحتكرون والمحتالون وناقضو العهود، تضيق بهم السُبل عند ترك الكذب ويواجهون طريقاً مسدوداً.

٣ ـ من الطبيعي أن يلجأ إلىٰ الكذب كل من الحسود لحسده، والمتكبّر لتفاخره والمتملّق للوصل إلىٰ هدفه والطامعين وأصحاب الدنيا لنيل مقصودهم.

فالحاسد يكذب ليصغّر المحسود في أعين الآخرين، والمتكبّر يكذب ليعظّم نفسَهُ في أعين الناس، وبالكذب يتوسل المتملّقون بألفِ نوعٍ من التملّق، وأصحاب الدنيا يكذبون لإرضاء روح الطمع الموجودة فيهِم، ويَسْلكون من أجل ذلك كل سبيل.

٤ ـ الصادق يحترز عن كثير من الذنوب؛ لأنّه يعتقد بلزوم الصدق في الأمور التي قد يُسأل عنها، ولو صدق لافتضحَ، فالأفضل اجتناب مثل هذه الأعمال تماماً، والالتزام بهذه الفضيلة يقيه الكثير من الذنوب.

٥ ـ كثير من الكذب يصير بنفسه سبباً لكذب أو ذنوب أخرىٰ، فكثيراً ما يستعين الكاذبون بعشرات العبارات الكاذبة لتبرير معاصيهم أو للحد من افتضاح أكاذيبهم.

ويتضح ممّا ذكرناه أن الإنسان إذا ما التزم بالصدق فسيكون مُلزماً بترك الكثير من الذنوب لأن كل واحدٍ منها يتغذّىٰ علىٰ الكذب بشكل من الأشكال، ولا حياة له بدونه. فالكذب مفتاح الرذائل وسبيل الوصول إليها.

* **الكذب ضد الإيمان:**

يستفاد من أحاديث كثيرة أن الكذب يتعارض مع الإيمان وهو علامة لانعدامه.

وكل هذا مُستلهم من القرآن الكريم، إذ قال تعالىٰ: ﴿إنّما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾[1]

وإليك قسماً من الأخبار:

١ ـ سُئِلَ رسول الله ﷺ: يكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: ويكون كذّاباً؟ قال: لا[2].

٢ ـ قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا يجدُ العبد طعم الإيمان حتىٰ يترك الكذبَ هزلَه وجدُّه»[3].

٣ ـ وعنه عليه السلام: «جانبوا الكذب فإنّهُ مجانبٌ للإيمان»[4].

ولا يستبعد أن يُراد من هذا، إضافة إلىٰ اسوداد القلب الذي يسببه الكذب. إن الكاذبين، بدافع القياس علىٰ أنفسهم لا يصدقون الأنبياء بسهولة، ولأنهم يكذبون في أصغر المسائل، لا يستطيعون التصديق بدعوة الأنبياء في مثل هذه المسائل المهمّة، ويمكن أن يكونوا في صف أهل الإيمان، لكننا لو اطلعنا علىٰ أعماق قلوبهم لوجدناها غير خالية من الشك والترديد وهذا هو شأن الكذّابين دائماً.

والعكس صحيح أيضاً فالصادقون يُصَدّقون بسرعة، لأنهم أهل صدق.

---

(١) سورة النحل ـ الآية ١٥.

(٢) جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٣) جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٤) مشكاة الأنوار ص ١٥٦.

وللكذابين سوءُ ظن خاصّ بالجميع وبكل شيء، ويحسبون أنَّ كُلَّ شيء مزيّف أو مشكوك في الأقل، فكيف يستطيع أمثال هؤلاء أن يكون لهم إيمان راسخ ومنزّه عن الشك بكل ما جاء به الأنبياء عليهم السلام؟ لذا نقرأ في التاريخ أن المنافقين والمنحرفين والكذابين كانوا غالباً ما يتهمون الأنبياء بالكذب.

وموضوع القياس علىٰ النفس هو إحدىٰ الحالات النفسيّة للإنسان التي تستطيع أن تكون مفتاح حلٍّ لكثير من المشاكل، وقد لاحظ بكثرة أن الجناة واللصوص والخونة يوقظون الآخرين بحركاتهم اللاطبيعيّة؛ لأنهم يعرفون أنفسهم ويعتقدون بأنَّ الآخرين يعرفونهم أيضاً، فيحاولون الاستتار فيلفتون أنظار الآخرين بحركاتهم المشكوكة هذه.

*** الكذب يخلق اللاأُبالية لدىٰ الإنسان:**

يتمتع الكذّاب بالقدرة علىٰ تبرير تقاعُسِهِ عن أداء واجباته عن طريق الأعذار الكاذبة. ويهون علىٰ مثل هؤلاء الأفراد نقض العهد والميثاق، وعدم الالتزام بالمواعيد وعدم أداء الواجبات المفروضة وغيرها؛ لأنّهم يسدلون حجاباً دون الموضوع ويتخلّصون من التوبيخ بجلب سلسلة من الأعذار المزيّفة.

وعلىٰ العكس من هذا نجد أنَّ الصادق يضطر إلىٰ رعاية مثل هذه الأمور، فلا يمكنه أن يكون لا أُباليّاً.

*** الكذاب لا يثق حتىٰ بنفسهِ!**

يفتقد الكذّابون الثقة ليس بالآخرين فقط ـ لأنهم يعتقدون بأنهم مثلهم ـ بل بأنفسهم أيضاً؛ لأنهم يظنّون بحقائق جميع الأشياء وحتىٰ بقدرتهم في مقاومة المشكل وحوادث الحياة المختلفة، وعزمهم وإرادتهم لإنجاز الأعمال.

وقد جاء في الحِكَم القصار لأمير المؤمنين علي عليه السلام: «إيّاك

ومصادقة الكذّاب فإنه كالسراب يقرب إليك البعيد ويُبعّد عليك القريب»[1].

ولو أنَّ صفة قلب الحقائق كانت قد ذُكِرَت كخصلة للكذّابين مع أصدقائهم، لكنها بسبب التعوُّد علىٰ الكذب، توجد في نفوسهم أيضاً، فيشكّون في الحقائق والحوادث التي تخصهم أو تخص الآخرين، وهذه أتعس مرتبة يبلغها الإنسان في حياته.

* **سبب الكذب:**

وكما ذكرنا سابقاً فإن الكذب ينبع من إحدىٰ نقاط الضعف الروحيّة:

فقد يخاف الإنسان من الفقر أحياناً، أو من تفرّق الناس عنه، أو من فوت الجاه أو المقام أو غيرها من الشهوات، فيلجأ إلىٰ الكذب مستعيناً به للحصول علىٰ أغراضه.

وقد تقود التعصبات الجاهلية، وحالات الحب أو البغض الإفراطيّة، الإنسان إلىٰ الكذب لصالح من يحب أو ضد من يكره.

ويكذب ليظهر نفسه أكثر من حقيقتها، ويتظاهر بالعلم والدراية في المسائل العلمية والتاريخية المختلفة.

لكنَّ الحقيقة هي أنَّ جميع هذه الرذائل، التي تشكل جذور الكذب، نابعة من نقص الشخصيّة والعجز الروحي وضعف الإيمان.

فالذين لا يؤمنون بشخصيتهم كذوي النفوس الضعيفة يلتجأون إلىٰ الكذب والتزوير والغش والخيانة لنيل مقاصدهم والتخلص من التَبِعات، وبعكسهم المقتدرون ذوو الشخصيّة العالية، فإنهم يعتمدون علىٰ قدراتهم الشخصيّة وينجحون من خلالها.

---

(١) نهج البلاغة ـ الحِكَم القصار، الحكمة ٣٨.

وهكذا الذين يؤمنون إيماناً تامّاً بقدرة الله الأزليّة ويعتقدون بأنَّ جميع البركات والنجاحات والتوفيقات مرهونةً بإرادته النافذة في جميع الأشياء، فهم يعتقدون بأن قدرته فوق كل شيء وأن يده فوق أيديهم، فلا مبرر لارتكاب المعاصي والكذب من أجل الحصول علىٰ منافع وقتيّة زائلة أو دفع أضرار معينة.

وقد يمكن أن تترسّخ جذور هذه الرذيلة الخطرة في الإنسان بسبب الغفلة عن أضرارها وعن أهمية الصدق وفوائده، أو بسبب تلوث المحيط العائلي أو الاجتماعي أو المعاشرين.

ويعتبر نقص الشخصية وعقدة الحقارة عاملاً آخر من عوامل الكذب المهمّة، فيسعىٰ المصابون بهذه العقدة إلى تعويض هذا النقص، الذي يحسّون به، من خلال أنواع الأكاذيب.

* طرق علاج الكذب:

وبملاحظة العوامل المؤثرة في إيجاد وترسيخ هذه الرذيلة، يتّضح لنا طريق علاجها شيئاً ما، وبصورة عامّة، ولأجل معالجة هذا الانحراف الأخلاقي، تجب الإستعانة بالأمور التالية:

١ ـ قبل كلّ شيء، يجب تحذير المصابين بهذه الرذيلة من عواقبها المرّة وآثارها الماديّة والمعنوية، والفردية والاجتماعيّة السيئة، والتعرّف جيداً من خلال التفكُّر والتدبُّر في آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للمعصومين عليهم السلام والتأمل في أحوال الماضيين وأقوال الحكماء علىٰ أنَّ منافع الكذب وأهميته لا يمكنها أبداً أن تقاس بكل تلك المفاسد المترتبة عليه.

ويجب تنبيههم علىٰ أنه حتىٰ لو كان للكذب منافع شخصيّة في بعض الأحيان، فإنها آنيّة سرعان ما تزول؛ إذ لا ثروة، لأي فرد في المجتمع وفي أي ظرف ومقامٍ كان، أغلىٰ من اعتماد وثقة الآخرين به.

ومما تجدر الإشارة إليه أن البعض يتصورون إمكانية الكذب بدون افتضاح أمرهم وسلب ثقة الآخرين بهم.

وهذا خطأ كبير؛ لأن التجربة قد أثبتت أنّ حبل الكذب قصير دائماً، والسرّ في هذا هو أن لكل حادثة أجواء وتفاصيل مختلفة، باختلاف الزمان والمكان والأفراد والحوادث الأخرىٰ، وكل من يريد اختلاق حادثة مزيّفة فإنّه يصفها مجردة عن كل تلك الأجواء والتفاصيل، وإن كان ذكيّاً وماهراً جداً فإنّه يضمُّ إليها أكاذيب مفتعلة أخرىٰ ويربط بين الحادثة المزيفة الأصليّة وهذه الحوادث المفتعلة الجانبيّة.

لكنّه لا يستطيع التنبيه لجميع الحيثيّات المحتملة والحوادث الجانبيّة والربط فيما بينهما بدقّةٍ، لذا يعجز عن توجيه كلامَهُ بعد عدّة أسئلة مختلفة تُطرح عليه.

وعلىٰ سبيل المثال فلننظر في قضاء أمير المؤمنين علي عليه السلام بخصوص ذلك الشاب الذي سافر أبوه وهو يحمل ثروة طائلة برفقة جماعة ادّعوا موته بعد عودتهم.

وسرعان ما انكشف المتهمون، الذين هم قتلة ذلك الرجل، بسبب الأسئلة المتعددة التي وجهها إليهم الإمام عليه السلام حول جزئيات مرض وموت وتكفين ودفن ذلك الرجُل؛ لأنهم كانوا قد اتّفقوا فقط علىٰ الادّعاء بمرضه وموته، ولم يتفقوا علىٰ مكان الموت وساعته ويومه، ومن الذي غسّلَهُ ومن الذي كفّنَهُ ومن الذي صلّىٰ عليه وما شاكل ذلك. والحقيقة أنهم لا يتمكّنون من الاتفاق في جميع ذلك.

وبناءً علىٰ ذلك فإن أمهر الكذّابين سوف ينكشف بسبب تحقيق بسيط؛ ذلك لأنّه يستعين بعبارات مزيّفة لإثبات أكاذيبه، ولكونها لا صحة لها، فإنه لا يتذكّرها جيداً. فلو سُئِلَ في فواصل زمنيّة مختلفة، لتورّط بالتناقض والتلعثُم في كلامه، ويُعَدُّ هذا التناقض أحد العوامل التي تكشف النقاب عن أكاذيب هؤلاء الأفراد. والسر في قولهم (الكاذب غبيّ)، مع افتراض امتلاكه لحافظةٍ ذهنيةٍ قوية، هو عدم موضوعيّة الموضوع عنده لكي يتمكّن من حفظهِ.

٢ ـ **تربية الشخصية**: تعتبر تربية الشخصيّة لدى الأفراد من أبلغ العوامل المؤثرة في علاج الكذب، وكما عرفنا فإنَّ الشعور بالحقارة ونقص الشخصيّة يعتبر من الدوافع النفسيّة المهمة للكذب، الذي يحصل كردّ فعلٍ لسدّ هذا النقص في مثل هذه الحالات.

فلو عَلِمَ الكاذبون بأنهم أصحاب قوىٰ واستعدادات داخلية، يمكنهم بتربيتها وتوجيهها رفع مكانتهم وشخصيتهم، لما وجدوا حاجة للجوء إلىٰ الكذب لاختلاق شخصيّة مزيفة.

وعلاوةً علىٰ هذا يجب تفهيم مثل هؤلاء الأفراد أن المكانة الاجتماعية للفرد الصادق، الذي استطاع كسب الثقة العامة بصدقه، لهي أعلىٰ من جميع القيم، وإنَّ الثروة المعنوية الكبيرة التي يملكها من المكانة الاجتماعيّة لا تُقاس بأية ثروة ماديّة، وبها يمكن الحصول علىٰ جميع الإمكانات الماديّة كذلك.

فمثل هذا الشخص له شخصيّة ليس في نظر الآخرين فقط، بل له مقامٌ عند الله عزّ وجل في صف الشهداء والنبيين كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ومن يَطِعِ الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾[1]

وقد ذكر العالم الشهيد الراغب الأصفهاني، في كتاب (مفردات القرآن)، عدة معانٍ لكلمة الصديق هي:

١ ـ من يصدق كثيراً. ٢ ـ من لا يكذب أبداً. ٣ ـ من يصدق في القول والعقيدة وعمله يدلّ علىٰ صدقه.

٣ ـ السعي لتقوية عُرىٰ الإيمان بالله في نفوس المصابين بمرض الكذب وتنبيههم بأنَّ يد الله فوق أيديهم، وهو القادر علىٰ حلّ جميع المشاكل التي يلجأ ضعاف الإيمان إلىٰ الكذب لحلّها.

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

فالصادقون يتوكّلون على الله في الحوادث المختلفة، لكن الكاذبين وحيدون في مثل هذه الحالات.

٤ ـ يجب قلع جذور دوافع الكذب في نفوس الأفراد مثل الطمع والجبن وحب الذات وحالات الحب والبغض المفرطة وما شاكل ذلك لكي لا تجد هذه الآفة العظيمة طريقاً للنشوء والظهور في وجود الإنسان.

٥ ـ يجب تطهير البيئات التربوية والاجتماعيّة من الكذّابين لكي تطهر النفوس من هذه الرذيلة، وفق قانون المحاكاة وتأثير المحيط في النفوس.

ولأهمية الموضوع قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا يصلُح الكذب جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكُم صبيّهُ ثم لا يفي به»[١].

* الكذب في الحالات الاستثنائية:

ذكر كبار الفقهاء وعلماء الأخلاق، بالإسناد إلى الأحاديث الواردة في هذه المسألة، حالات مستثناة من حكم الكذب، لخصّها بعضهم في موضوعين هما: الضرورة وإصلاح ذات البين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إحلف بالله كاذباً ونجّ أخاك من القتل»[٢]

ولكن ينبغي الانتباه هنا إلى نقطتين أساسيّتين هما:

الأولى: إن جميع الحالات الاستثنائية تعود في الواقع إلى موضوع واحد هو إباحة الكذب لضرورات مهمّة تغطّي مفاسده.

وطبيعيّ فإنَّ هذا الموضوع لا ينحصر بمسألة الصدق والكذب فقط، بل يمتدّ ليشملَ سائر المحرّمات مثل «أكل الميتة» و«إيذاء اليتيم» وغيرهما، حيث تُباح لحفظ النفس والتأديب وما شاكل ذلك والحالات

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٣٢.

(٢) المكاسب للشيخ الأنصاري ـ موضوع الكتاب.

المذكورة في الحديث أعلاه هي من باب المثال لا غير.

فمثلاً لكون فائدة إصلاح ذات البين وجمع القلوب المتباغضة وتطهرها من العداوة والحقد، أهم من الكذب الذي لا يضرّ أحداً، فقد أُبيح هذا العمل، وكذلك الحالات الضرورية كحفظ نفس الإنسان أو عرضه، أو الآخرين، أو ابتكار وتنفيذ الخطط الحربيّة، فقد يمكن أن يؤدي الكذب إلىٰ إنهاء الحرب وحقن الدماء، أو ردع عدوٌ غاشم. وكذلك عندما يحصل جدال بين زوجين حول مسائل معينة فقد يؤدّي استمراره إلىٰ الفرقة والطلاق أو أضرار أخرىٰ، في الوقت الذي يمكن أن تُحلْ المشكلة بكذبة بسيطة. ففي جميع هذه الحالات يُباح الكذب لحفظ المصلحة الأهم. ولو دققنا جيداً لوجدنا أن أضرار الكذب في مثل هذه الحالات، التي ذكرناها سابقاً، طفيفة جداً ولا تُقاس بفوادهِ.

الثانية: ينبغي الانتباه إلىٰ أن إباحة الكذب في مثل هذه الحالات مشابه جداً لإباحة أكل الميتة، إذ يجب الاكتفاء بمقدار الضرورة فقط، لا أن تصير هذه الإباحة باعثاً علىٰ التجرُّؤ علىٰ ارتكاب هذا الذنب الكبير، فيكذب المرء في كُلّ صغيرة وكبيرة بحجة الاستعانة بحالات الكذب المباحة.

ففي الواقع إن المهالك الأخلاقية تقع علىٰ حافة الحالات الاستثنائية، والملاحظات هي حول الأمور المبهمة التي تشكّل منطقة الخطر المحاذية للمنطقة الممنوعة، وقد سميت في الأخبار (حمىٰ الله) «محارم الله حمىٰ الله، فمن يرتع حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيها».

وقد قال الغزالي في نهاية الفصل الذي خصّصه من كتاب (إحياء العلوم) لحالات الكذب المباحة: اعتقد البعض بجواز افتراء الأحاديث في فضائل الأعمال والنهي عن المعاصي كذلك، وأضاف قائلاً: ما هذا إلاّ اعتقاد باطل؛ لأن الفائدة من هذا العمل لا تُقاس بأضرار الكذب أبداً، علاوة علىٰ هذا فلا ضرورة لهذا العمل؛ لأن هناك آيات وأحاديث صحيحة كافية في هذا المجال. وبغضّ النظر عن جميع ذلك

فإنّ هذا الباب يؤدّي إلىٰ تخريب وتحريف الشريعة المقدسة[١].

وباعتقادنا فإن هؤلاء يتصوّرون، بأعمالهم الغبيّة هذه، أنهم أشفق علىٰ الإسلام من الله ورسولَهُ، وهذا العمل شرٌّ محض وفاسدٌ من أوله إلىٰ آخره، وخطره وخطر هؤلاء الحمقىٰ ليس بأقل من خطر أعداء الإسلام اللدودين.

ما معنىٰ التورية؟

(التورية) علىٰ وزن (توصية)، وتُطلق علىٰ الكلام الذي يفهم من ظاهره شيء في حين يقصد المتكلم به شيئاً آخر.

والمشهور بين فقهائنا هو لزوم العدول إلىٰ التورية في الحالات التي يباح فيها الكذب لضرورة معينة، وكل موضع يمكن عدم التصريح فيه بالكذب والعدول إلىٰ التورية كان الأولىٰ ذلك.

وهذا الموضوع مشهور عند أهل العامّة أيضاً، كما يتضح من كلام علمائهم.

وقد قالوا في معنىٰ التورية:

هي عبارة عن التصريح بكلام يُقصد به شيء مطابق لما هو عليه، ولكن يصاغ بشكل يفهم المخاطب منه معنىً آخر غير مطابق لما يريده المتكلّم.

ففي الوقت الذي يقصد المتكلّم الخير والصلاح يُفهم من كلامه شيءٌ آخر، فمثلاً سُئِلَ رجل عن خليفة رسول الله ﷺ؟ فقال (من ابنته في بيته) ففهم المخاطب أنه يقصد الذي ابنته في بيت الرسول ﷺ في حين إنَّ قصد المتكلم (من بنت الرسول في بيته).

والمهم هنا هو معرفة أن التورية داخلة في باب الكذب أم لا؟

---

(١) إحياء العلوم، ج ٣، ص ١٣٩.

وبصورة عامّة هناك ثلاثة آراء في هذه المسألة:

١ ـ اعتقد جماعة بأن التورية ليست من الكذب بتاتاً، لذا قالوا بوجوب العدول إليها عند الضرورة لاجتناب الكذب.

وأصحاب هذا الرأي يَستدلّون على هذا بأن المقياس في الكذب والصدق هو قصد المتكلّم ونيّته، فلو صحّ قصده لكان صادقاً، وإن كان كلامهُ مفصحاً عن غير ما هو عليه؛ لأنّه لا تأثير لاشتباه المخاطب في فهم قصد المتكلم.

وقد وردت روايات عديدة، حول تأويل قول إبراهيم عليه السلام لعبدة الأوثان: «بل فعلَهُ كبيرهم هذا فاَسألوهم إن كانوا ينطقون». وقول يوسف عليه السلام: «يا أيتها العير إنكم لسارقون»، تؤيد صحّة الرأي القائل أن التورية ليست من الكذب.

٢ ـ اعتقد البعض الآخر كالمرحوم المحقق القمّي بأن التورية من الكذب، لأنَّ المقياس في الصدق والكذب هو ظاهر الكلام لا قصد المتكلم.

٣ ـ ويُسْتَنبَط من كلام المجموعة الثالثة (كالغزالي) أن التورية مصداق للكذب ولكن قبحها وفسادها أقل من الكذب.

ولعلّه يَقصِد أن ظاهر الكلام في الكذب العادي وقصد المتكلّم خلاف ما هو عليه في الواقع، ولكن لا يقصد الكذب في التورية؛ لذا فهي أقلُّ قبحاً وفساداً.

*** معنىً جديد للتورية:**

لكننا نذكر هنا نقطة مهمّة تُعَدّ مفتاحاً لحلّ مشاكل هذا البحث وهي:

إن التورية ليست كل ما يُقصَد به إفهام المخاطب خلاف الواقع، بل هي إخبار المتكلّم المخاطَب بلفظٍ ذي احتمالين أحدهما مطابقٌ

للواقع وأظهر في المقام فيحمله المخاطب عليه وثانيهما مطابقٌ له يُريده المتكلِّم. كقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأخوته «إنكم لسارقون» فظاهر الكلام هو (السرقة الفعلية) ولكن المقصود هو (السرقة السابقة أي سرقة يوسف من أبيه)، وهذا خلافُ ظاهر المعنىٰ.

أو عندما يُسْأل أحد: هل أهدىٰ إليك فلان هذه الثياب؟ فيجيب بقصد التورية ويقول: «أمدَّ الله في عمره»، فيفهم المخاطب أنَّ المتكلم يقصد (نعم، أمدَّ الله في عمره) بينما هو لا يقصد ذلك.

الفصل الخامس

الغيبة

الغيبة جهد العاجز

الغيبة من أخطر وأكبر آفات اللسان وأكثرها شيوعاً.

وهي ذكر الغير بما يكرهَهُ لو بلغه سواءً كان ذلك بنقصٍ في بدنه أو أخلاقه أو أقواله أو أفعاله المتعلقة بدينه أو دنياه، بل حتىٰ لو كان بنقصٍ في ثوبه أو داره أو ما شاكل ذلك.

*** أهم دوافع الغيبة:**

١ ـ الحقد والانتقام:

حين لا يجد بعض الأفراد، لإطفاء نار الحقد والانتقام المستعرة في صدورهم، طريقاً أسهل وأقصر من اغتياب الآخرين وهتك حرمتهم.

٢ ـ الحسد:

يتمنّىٰ الحاسد دائماً زوال نعمة الحسود، وعندما لا ينال مقصوده يستعين بالغيبة، فيذكر نقاط ضعف محسوده ليصغّره في أعين الناس وليخمد نار حسده من هذا الطريق.

٣ ـ تبرئة النفس من الرذائل:

قد يريد الإنسان تصغير الذنب الذي ارتكبه أو تبريره، فيستعين علىٰ ذلك بذكر عيوب الآخرين.

٤ ـ السخرية والاستهزاء:

فمن المعلوم أن للسخرية والاستهزاء بالآخرين دوافع مختلفة، وبعد أن تتأصّل جذورها في وجود الإنسان تصير الغيبة وسيلة لتحقيق هذا الغرض.

٥ ـ اللعب والهزل والممازحة:

يلجأ الكثيرون إلىٰ ذكر عيوب الآخرين دون أن تحركهم الدوافع المذكورة أعلاه في عملهم هذا، بل بقصد اللعب والهزل والممازحة؛ إذ لا شيء أحلىٰ من الغيبة في نظر بعض الناس.

وينبغي الانتباه إلى أن بعض الناس لا يجدون لذةً في اللعب والهزل والممازحة فقط، بل بإضحاك الآخرين وجرّهم إلىٰ اللّهو أيضاً.

٦ ـ غريزة التجسُّس:

وتُعدُّ هذه الغريزة من أقوىٰ غرائز الإنسان، وتدعوه للإلحاح على الآخرين إلىٰ الغيبة وإفشاء العيوب الموجودة لدىٰ مختلف الأفراد، ولعلَّ حلاوة الغيبة في ألسنة البعض تنبع من الإشباع غير المشروع لهذه الغريزة الجامحة، فيلتذّون بالإطلاع علىٰ أسرار الآخرين والتجسُّس عليهم، لذا يحرصون بشدّه ويطمعون في جرّ الآخرين إلىٰ الغيبة.

ومن البديهيّ أن ملاحظة هذه العوامل يمكن أن تعيننا علىٰ معرفة مصاديق الغيبة وطرق علاجها.

ويجب الانتباه إلىٰ أنَّ هذه العوامل كثيراً ما تسري في وجود الإنسان بصورة خفيّة وطبيعيّة، لأن وجدانه وضميره لا يسمحان بظهورها، فهي تتنكّر وتتلبّس بلباس الرأفة أو النهي عن المنكر أو تنبيه الآخرين وتحذيرهم، فيقع في الغيبة وهو يعتقد في نفسه قدسيّة هذا العمل، بينما ويكون دافعه الأساسي هو تلك العوامل التي ذكرناها أعلاه، فتعمَدُ روح الإنسان إلىٰ تغيير صورة العمل وقلب حقيقته لإغراء

الوجدان والهروب من ضغوطه وعذابه. وتعتبر هذه الحالة من أخطر أنواع الغيبة وأصعبها علاجاً.

*** محاذير الغيبة:**

ونشرع بذكر عظمة هذا الذنب من وجهة نظر القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام أولاً، ثم نشرح أضراره الاجتماعية والفردية.

لقد اهتمت المصادر الإسلامية الأساسيّة، علىٰ الرغم من عدم اهتمام الكثير من الناس، بهذه المسألة الحيوية اهتماماً بالغاً وقد وردت أشد التعبيرات في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في ذم الغيبة، ونُورِدُ هنا عَشْراً منها لعلّها تكفي للتنبيه علىٰ عظمة هذا الذنب في الإسلام.

١ ـ نهىٰ القرآن الكريم المسلمين عن الغيبة بصراحة، واعتبرها عملاً لا إنسانياً إذ شبّهها «بأكل لحم الأخ الميت»، وهذا من أقبح الرذائل التي يمكن أن يرتكبها شخص معين، وقد حصر هذا التعبير بالغيبة فقط.

وسبب هذا التشبيه واضح طبعاً؛ لأن لمكانة ووجاهة ودم المسلم حرمة في الإسلام، كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «كلُّ المسلم على المسلمِ حرامٌ، دَمُه ومالُه وعِرضُه»[١].

ولا ريب في أن الغيبة انتقاص من شرف المسلم وهتك لعرضه.

والجدير بالانتباه هو أنَّ الغيبة ثالث الأمور المنهي عنها في القرآن الكريم بعد سوء الظن والتجسُّس: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن؛ إنَّ بعض الظنِّ إثمٌ، ولا تجسّسوا، ولا يغتب بعضكم

(١) كشف الريبة، وإحياء العلوم، والمحجّة البيضاء.

بعضاً، أيحبُّ أحدكم أن يأكُلَ لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه، واتقوا الله إنَّ الله توابٌ رحيم﴾[1].

ولعلَّ السِّر في هذا التعبير هو أنَّ الإنسان يُبتلىٰ أولاً بسوء الظن، الذي يقوده إلىٰ التجسس، والذي ينتهي بدوره إلىٰ الاطلاع علىٰ عيوب وعورات الآخرين، ليصبح ذلك ـ أخيراً ـ مصدراً للغيبة.

٢ ـ الغيبة تنافي الإيمان:

قال البرّاء: خطبنا رسول الله ﷺ حتىٰ أسمع العواتق في بيوتها فقال: «يا معشر... من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه ولا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من تتبّع عورة أخيه تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[2].

ويُفهَم من سياق الحديث أنَّ الرسول ﷺ قد رفع صوته بحيث سَمِعَتْهُ العواتق في بيوتها، أي النساء أوّل بلوغهن، والقصد من ذلك: حتىٰ البواكر اللاتي لم يخرجن من بيوتهن!

ولعلَّ السبب في منافاة الغيبة لروح الإيمان هو كون رعاية حق المؤمن، الذي يتنافىٰ مع الغيبة، من أول علائم الإيمان.

٣ ـ الغيبة بمنزلة إشاعة الفحشاء:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه، فهو من الذين قال الله عزّ وجل فيهم: إن الذين يُحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليم».

والسر في هذا واضح أيضاً؛ لأن الإطلاع علىٰ عورات الناس، لكونها عيوباً دينيّة في أغلب الأحيان، يؤدي إلىٰ تجرُّؤِ الآخرين وتجاسرهم علىٰ اقتراف الذنوب، ومن ثم إلى إشاعة الفحشاء.

---

(١) سورة الحجرات ـ الآية ١٣.

(٢) العاتق: هي الجارية أوّل ما أدركت، والعورة كل ما يستحىٰ منه.

٤ ـ الغيبة أشد من الزنا:

عن جابر وأم سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الغيبة أشد من الزنا» وسبب ذلك هو أن الزاني لو تاب لتاب الله عليه (لأن الزنا يدخل في حق الله) أمّا لو تاب المغتاب لما تاب الله عليه، إلاّ أن يتحلل من صاحبِهِ؛ لأن في الغيبة حق الناس.

ولعلَّ الدليل الثاني علىٰ كون الغيبة أشد من الزنا هو أن الغيبة تهدم الوحدة، وتمحو المحبّة والإخلاص وحُسن الظن في المجتمع، وتوجّه صفعة قوية له (كما سنوضح ذلك فيما بعد)، بينما ليس للزنا أضرارٌ كهذهِ.

٥ ـ الغيبة تُحجبُ الأعمال والطاعات:

جاء في حديث معاذ: ـ إنّ عمل العبد يُضيءُ كما يضيء شعاع الشمس، ويصعد إلىٰ السماء، لكنّه يُرَد ويُضْرَبُ به وجه صاحبه ويقول المَلَكُ «أمرني ربّي أن لا أدعَ عمل من يغتاب الناس يتجاوز إلىٰ ربي».

ويُحتمل أن يكون سبب هذا هو ما يُسْتَنْبَط من أحاديث كثيرة أن أعمال من في ذمتهم حق للآخرين غير مقبولة، والغيبة أحد أنواع الاعتداء علىٰ حقوق الآخرين وهدم مرؤتهم وهتك حرمتهم.

٦ ـ الغيبة آفة الأخوّة الإسلاميّة:

عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً».

ويُفهَم من الجملة الأخيرة أن العبودية لله والأخوّة الإسلاميّة هما ضدان للحسد والعداوة والغيبة، وبديهي أن من أولىٰ علائم الأخوّة المحبّة والإخلاص اللتان لا تجتمعان مع الغيبة.

ولعل السبب في ذكر هاتين الرذيلتين (الحسد والبغض) في

الرواية هو كونهما من دوافع الغيبة، فالحسد يُسبب الحقد والعداوة مصدر الغيبة.

٧ ـ الغيبة تأكل الحسنات:

روى عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «الغيبة حرامٌ علىٰ كُلّ مسلم وإنها لتأكُل الحسنات كما تأكُل النار الحطب».

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليَسْتحِلّها منه قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، فيؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات صاحبه فيزاد علىٰ سيئاته».

ويمكن أن يكون المراد من عبارة «الغيبة تأكل الحسنات» هو كونها تُضيّع أكبر الثروات المعنوية، التي هي عبارة عن عرض المرء ومكانته الاجتماعية وماء وجهه، ولكون جُبران هذا الحق (حق الناس) غير مُيَسَّر بالأمور الماديّة، لذا يجبره الله سبحانه وتعالىٰ بالأمور المعنويّة، فيأخذ من حسنات المغتاب ويعطيها لصاحبه، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحِبَهُ وكتبها في كتابه، ليجبُر تلك الثلمة التي حصلت في شرف المقصود بالغيبة عن هذا الطريق. ويُفهَم من الرواية الأخيرة أن البديل الأخروي للأمور المعنوية هو شيءٌ من هذا القبيل، ممّا يؤكد حق الناس في موضوع الغيبة.

٨ ـ الغيبة تُفسِدُ العبادات:

هناك روايات كثيرة تؤكّد كون الغيبة من نواقض الوضوء ومبطلات الصيام، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة عبادةٌ ما لم يُحدِث، فقيل يا رسول الله ﷺ وما الحدَث؟ قال الاغتياب!».

وقال أيضاً: «من اغتاب مسلماً بَطُل صومه ونقض وضوؤه».

وتأويل ذلك هو أن العبادات تخلق حالة تَقَرُّب من الله مع نورانية معنويّة في الإنسان، فلو لوّث المتوضيء أو الصائم لسانه بالغيبة، ضيّع تلك الحالة المعنوية وسقط من تلك الدرجة من القرب، لذا عبّر عنه في الحديث بكلمة «نقض».

٩ ـ الغيبة تخرج الإنسان من ولاية الله وتُدخِلَهُ في ولاية الشيطان:

عن المفضّل بن عمرو عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من روىٰ علىٰ مؤمنٍ رواية يُريد بها شينه وهدم مروءة ليُسْقِطَهُ من أعين الناس أخرجَهُ الله من ولايته إلىٰ ولاية الشيطان فلا يقبلَهُ الشيطان».

وبديهي أنَّ هذه الرواية لا تخصُّ موضوع الغيبة فقط، بل الغيبة من أحد مصاديقها، فجميع المغتابين يريدون هدم مروءة من يغتابونه ولو بالنتيجة، لأن هذا من مستلزمات الغيبة.

أمّا المقصود من ولاية الله فقد ورد في القرآن الكريم أنَّ الله قد أخذ على عاتقه ولاية وهداية المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور[1]، والتخلّي عن ولاية هؤلاء المغتابين؛ لأنَّ الوليّ معناه المرشد والقائد والصديق والمنقذ كما جاء في الآية (٤٦) من سورة الشورىٰ: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ وقد تعني المنجي من الذل كما جاء في الآية (١١١) من سورة الإسراء: ﴿ولم يكن له شريك في الملك ولم يكُنْ له ولي من الذل﴾. وقد تأتي بمعنىٰ الغافر كما جاءت في الآية (١٥٥) من سورة الأعراف: ﴿أنت ولينا فٱغفر لنا وٱرحمنا وأنت خير الغافرين﴾.

لذا فالمغتابون يُحرمون من فيوضات جميع هذه البركات بسبب خروجهم من ولاية الله ودخولهم في ولاية الشيطان، ولعل المراد من عبارة «فلا يقبله الشيطان» هو عجزه عن توليهم وتدبير أمورهم وتحمل هذه المسؤولية علىٰ عاتقه فيتركهم علىٰ ما هم عليه!

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٥٧.

١٠ ـ بقاء قسم من تبعات الغيبة حتىٰ بعد التوبة أيضاً:

عن المعصومين عليهم السلام: «أوحىٰ الله عزّ وجل إلىٰ موسىٰ بن عمران أنّ المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنّة وإن لم يتب فهو أول من يدخل النار».

ولعل المقصود من هذا الحديث هو أن للغيبة حقّين هما حق الله وحق الناس، وحق الناس فوق كل حق، وبالغيبة يُراق ماء وجه الآخرين وتسحق مكانتهم، وهذه ثروة ثمينة لا تُعوّض، بعكس الثروات الماديّة، وهذا هو السبب في كون المغتاب آخر من ينجو من النار، لذلك وُصِفَ هتك حرمة المسلم بأنه أربىٰ الربا كما جاء في رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أربىٰ الربا عرض الرجل المسلم».

* أضرار الغيبة الاجتماعية والفردية:

وللغيبة أضرارٌ اجتماعية جسيمة:

١ ـ لو اتسعت رقعة الغيبة في المجتمع لخسرنا أعظم القيم الاجتماعية المتمثلة بروح الأخوة والوحدة والإخلاص، ولتزعزعت قواعد حسن الظن والثقة العامّة التي تعتبر أول شرطٍ لإيجاد روح التعاون الاجتماعي.

فانتشارُ الغيبة يتسبّب في اطّلاع الناس علىٰ عيوب بعضهم؛ إذ لا يخلو أغلب الأفراد من العيوب، ويؤدّي الإطلاع عليها إلىٰ إيجاد سوء الظن في المجتمع، مما يزيل روح التعاون، ويَسلب جميع البركات التي تعمّ المجتمع عن هذا الطريق، ويؤدي إلىٰ عزل الأفراد اجتماعياً في دوائر مغلقة.

ولعل رواية «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تغتابوا وكونوا عباد الله إخواناً»، التي ذكرناها سابقاً تشير إلىٰ هذا الموضوع.

٢ ـ غالباً ما تتسبب الغيبة في إشعال نار الفتنة وتوسيع العداوة والبغضاء بين الأفراد؛ لأن عيوب البعض قد يكون لها علاقة بحقوق

الآخرين أو تصير حربة بيد الأشرار للانتقام وهدم مروءة البعض مما يؤدي إلىٰ خلق الخصومات أو تشديدها.

٣ ـ الغيبة تسحق شخصية الفرد وتصغّره في أعين الناس: وبانكسار شخصية مثل هؤلاء الأفراد وهتك حرمتهم يقلّ احترازهم من الذنوب؛ لأن الكثير من الناس يجتنبون قبائح الأعمال حفظاً لماء وجوههم ومكانتهم الاجتماعية، وإن ارتكبوها فبصورة سريّة، فلو افتُضِحَت عيوبهم بالغيبة لما وجدوا داعياً للتستُّر عليها، وعليه ستصير الغيبة عاملاً مؤثراً في إضعاف الالتزامات الاجتماعية ونشر الفساد.

٤ ـ وللغيبة أضرار اقتصادية واجتماعية غير قابلة للتعويض؛ إذ تؤدي إلىٰ تقليل نسبة الثقة المتبادلة بين الناس، التي لها تأثير اقتصادي، أكبر من تأثير الثروات الاجتماعية الماديّة، في ازدهار المجتمع، وبدونها ستضعف فعالية الثروات الماديّة وتميل إلىٰ الركود أو الكساد. هذا من الناحية الاجتماعية.

أمّا أضرار الغيبة من الناحية الفردية فهي:

الغيبة نوع من الظلم والتعدّي الواضح علىٰ حقوق الآخرين، وبها ستظهر جميع الرذائل الأخلاقية المترتبة علىٰ ظلم إنسان لآخر، وعلاوة على هذا فلكون الغيبة تنشأ من سلسلة من الدوافع الأخلاقية السيئة، فإن تكرارها سيؤدي إلىٰ تقوية وترسيخ جذور تلك الرذائل في الإنسان.

لذا فالغيبة تحطّ من مستوىٰ الفرد من ناحية القيم الإنسانية وتُضعف مقوّمات المجتمع، وإن الروايات الشريفة والآيات القرآنية الكريمة، التي ذكرناها سابقاً، مثلٌ حيّ لهذه الحقائق.

* حدود الغيبة وكيفيتها:

١ ـ أنواع الغيبة:

مع أن المتبادر إلىٰ الأذهان من معنىٰ الغيبة هو ذكر عيوب الآخرين الخفيّة باللسان فقط، لكنّه وبالرجوع إلىٰ ملاكها الصحيح

يتضح أن معناها الأخلاقي عامٌ وشاملٌ لإظهار النقص سواء أكان بالقول أم الفعل أم التصريح أم التعريف أم بالإشارة والإيماء أم بالغمز والرمز أم بالكتابة والحركة. فقد رُويَ أنّه دخلت امرأةٌ علىٰ عائشة فلما ولّت أومأت بيدها أنها قصيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد اغتبتها»[1] وفي رواية أخرىٰ أن عائشة عابت امرأةً فنهاها ﷺ عن ذلك[2].

ومن هنا يتضح وجوب التقيُّد بأسلوبٍ سليم في انتقاد أفكار الآخرين في المقالات وأنْ يكون بشكلٍ لا يصير مصداقاً للغيبة، فكثيراً ما يكون النقد أو الإشكال علىٰ كلام الآخرين بتعبيرات هي مصاديق واضحة للغيبة أو الذم أو الاستهزاء أو الإهانة والاستخفاف، كأن يقول: إن الرأي الفلاني باطلٌ لا محالة، أو مضحكٌ أو طفولي أو غير معقولٌ، إلاّ في حالة عدم تسمية صاحبه أو كون غيبته مباحةً لسبب ما.

وكذلك لو كنّىٰ الإنسان في كلامه، ولكن توجد أدلّة وعلائم تُفهِم السامع المقصود فيكون غيبةً أيضاً، كأن يقول حضرتُ اليوم درسَ من قال كذا حال كون السامع يعرفُ ذلك المدرس.

٢ ـ الغيبة المطعّمة بذنوب أخرىٰ:

قد تختلط هذه الرذيلة برذيلة أخرىٰ فيتبدل شكلها بصورة تامّة أو تظهر بشكل عمل مستحب! كأن يقول البعض بعنوان الاحتراز من الغيبة: «أخشىٰ أن أوضح المسألة فتصير غيبة» والأدهىٰ من هذا قولهم «مع الأسف فإن الإسلام قيّد ألسنتنا»! أو «لولا الشرع لقُلنا ما ينبغي قولَهُ».

ففي الوقت الذي يرتكب هؤلاء الأفراد فيه الغيبة بهذه الرموز، فإنهم يثيرون ظن المخاطب حول الشبهات بخصوص من يقصدونه بكلامهم، وذلك عن طريق الإبهام في الموضوع، ويكبّرون الموضوع

---

(١) و(٢) إحياء العلوم ج ٣، ص ١٤٥.

أكثر مما هو عليه. وعلاوةً علىٰ جميع ذلك فإنهم يرتكبون الرياء أيضاً، ويجمعُون ـ في آنٍ واحدٍ ـ رذيلتين بكيفيّة خطيرة.

أو يظهرون في حالة الغمّ والحزن ويقولون: «قد ابتلي ذلك المسكين بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه»!

فقد اختلطت الغيبة هنا بالرياء أيضاً.

أو أن يظهر في مقام المراءاة ويقول: «الحمد لله الذي لم يَبْتلنا بالمسكرات والمواد المخدرة... الخ، معرّضاً بمن ارتكب ذلك ثم يقول: «الحق لو لم يعصمنا الله لزللنا!»، فهنا تجتمع الغيبة والرياء ومدح النفس معاً.

أو أن يقول: «إنني أخبرته حضورياً بجميع ذلك أو سأخبره»!

بهذا سيُبطِل جميع المحامل الحسنة وسيُثبت غيبته بهذا الدليل الواهي الذي لا تأثير له في ماهية الغيبة.

٣ ـ حق الناس في الغيبة:

لو عُرفت حقيقة الغيبة كما ذكرنا في بداية البحث لاتضحت أهميّة حق الناس فيها بصورة كاملة، لأنّه:

أولاً: سيصغُر المشار إليه بالغيبة في أعين الآخرين، ومن المسلَّم به أن هذا ليس أقلّ قيمة من فقد الأموال في العقل والشرع.

ثانياً: يتّضح من تشبيه الغيبة في سورة الحجرات بأكل لحم الأخر الميت، أن الغيبة مصداق من مصاديق الظلم.

ثالثاً: هناك روايات عديدة تُشير إلىٰ المسألة التي ذكرناها سابقاً، محو الحسنات وانتقال السيئات عن طريق الغيبة فقد روي: «إن الغيبة لا تغفر حتىٰ يغفر صاحبها» وقال ﷺ: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له» وقد عدّت بعض الروايات ترك الغيبة من حقوق المؤمن.

وعلىٰ أيّة حال فالغيبة مصداقٌ واضح للظُلم ولا تُغفر، إلاّ أن

يغفر صاحبها. ومن هنا نستنتج أن كفارة الغيبة لا تنحصر بالتوبة والاستغفار فقط.

أجل لو لم يكن هناك أي طريق للتحلّل من صاحب الغيبة أو لم تتسبب في هتك عرضه أو هدم مروءته، لأمكن الاكتفاء بالاستغفار.

❁ ❁ ❁

* مسوغات الغيبة:

أجمع الفقهاء وعلماء الأخلاق علىٰ وجود حالات تُباح فيها الغيبة، لكنهم اختلفوا في نوع تلك الحالات، واختلفوا أحياناً في ذكر الأمثلة والمصاديق بدون أن يختلفوا في أصل الموضوع، وأحياناً أخرىٰ في ذكر الجوانب المعنوية والواقعية.

ولكن يظهر من الأدلة والمستندات الصحيحة للموضوع أن الغيبة تجوز في حالتين:

أ: ـ الحالة التي يتوقف عليها تحصيل المصلحة الأهم، ومصاديقها عديدة:

١ ـ حالة الاستشارة، كنصح المُستشارِ في التزويج أو في التعامل مع شخص معين، فله أن يذكر ما يعرفه من عيوب ذلك الشخص فيما يخص الموضوع ويكشفها له ليقي المستشير من الأخطار المحتملة.

٢ ـ النهي عن المنكر.

٣ ـ القدح في مقالة أو دعوىٰ باطلة في الدين.

٤ ـ تحذير المسلم من شر أو ضرر مُبيَّتٍ له.

٥ ـ التظلم عند من له رتبة الحكم ورفع المظالم واسترداد الحق.

وبصورة عامّة، في جميع الحالات التي تكون فيها فائدة ذكر عيوب شخص معيَّن أكثر من ضرره.

والدليل علىٰ استثناء هذه المواضيع واضح؛ لأنه يستند من جهةٍ علىٰ دليل عقلي قاطع وهو قاعدة المهم والأهم، ومن جهة أخرىٰ علىٰ دليل نقلي يتمثّل بالآيات والروايات الشريفة التي تُشير إلىٰ بعض هذه الحالات «كالتظلّم ورد المظالم والقدح في البدع».

والنقطة التي يلزم ذكرها هنا من وجهة نظر علم الأخلاق هي لزوم المراقبة والانتباه إلىٰ أن أغلب الانحرافات والمزالق تحصل في الاستثناءات عن طريق سوء القصد أو الغفلة والاشتباه في تعيين حدود تلك الاستثناءات.

ذلك لأن جميع الأفراد غير مستعدين لمخالفة القوانين واقتراف الذنوب بصورة واضحة وصريحة بل أكثرهم يستعينون لتحقيق مآربهم بالتظاهر بالاستعانة بالحالات الاستثنائية والملاحظات، بل في كثير من الحالات يستعين الإنسان بهذا الطريق لخداع ضميره ويعتصم بهذه الملاحظات والاستثناءات ليفرّ من وخز الضمير وليتوقّىٰ ثلم شخصيته الذاتية والداخلية (وهذه إحدىٰ حالات اصطدام وتضاد الضمير الميت مع الضمير الحيّ وانتصار الأول علىٰ الثاني).

ولهذا يجب تقسيم المصلحة الموجودة في الغيبة في هذه الحالات بدقّةٍ، مع أخذ خصوصيات وجوانب الموضوع بنظر الاعتبار، والتأكُّد من أرجحيّة نفعها علىٰ ضررها، وأن لا نلوِّث نفوسنا بحالات الغيبة الخطرة بحجة إباحتها.

ب: ـ الحالات التي تجوز فيها الغيبة دون أن تكون هناك مصلحة خاصّة، وتنحصر الغيبة بالمتجاهرين بالفسق:

ومع أن البعض كان قد أدرج مسألة التظلُّم في هذا القسم، إلاّ أنه كما ذكرنا فإن هذه الحالة من الحالات التي فيها مصلحة شرعيّة أهمّ، أي استرداد الحق والوقوف بوجه الظالم ونصرة المظلوم.

والدليل علىٰ استثناء هذا الموضوع علاوةً علىٰ الدليل العقلي، هو الأحاديث التي نقلت في مصادر الشيعة وأهل السُنة مثل:

١ ـ ما روي عن النبي محمدﷺ: «ثلاثة ليس لهم حرمة: صاحب هوىً مبتدع، والإمام الجائر، والفاسق المعلن بفِسقه»[(١)]

وقد ورد الحديث في بعض المصادر بهذه الصيغة: «ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوىٰ، والفاسق المِعلن بفسقه، والإمام الجائر»[(٢)]

٢ ـ وعنهﷺ: «ليس لفاسقٍ غيبة»[(٣)]

٣ ـ وعنهﷺ: «من ألقىٰ جلباب الحياء فلا غيبة له»[(٤)]

٤ ـ الروايات الكثيرة التي وردت في باب العدالة في وسائل الشيعة، ومنها ما روي عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن عامل الناس فلم يظلمهم وحدَّثهم فلم يكذبهم وواعدهم فلم يخلفهم كان ممن حَرُمت غيبته وكملت مروءته وظهر عدله ووجبت أخوّته» (وسائل الشيعة).

❁ ❁ ❁

ولكن تبقىٰ هنا عدة مسائل يجب شرحها وهي:

أ ـ هل أنَّ استثناء المتجاهر بالفسق هو من باب الخروج عن دائرة الموضوع (أي المتجاهر بالفسق لا يُكْرَه ذكر عيوبه في غيابه، علاوةً علىٰ هذا فإن عيوبه ليست خفيةً لتدخل في موضوع الغيبة)؟، أم أن اغتياب المتجاهر بالفسق هو أحد أنواع الغيبة لكنها تُستثنىٰ بعنوان التخصيص؟

ب ـ هل يختصُّ جواز اغتياب المتجاهر بالفسق بالذنوب المتجاهر بها فقط أم يمتدُّ ليشمل جميع الأمور؟

ج ـ لو تجاهر أحدٌ بالفسق في مكان معين، ولم يتجاهر به في مكان آخر. وأخفاه، فهل يجوز اغتيابه في المكان الثاني أم لا؟

---

(١) مكاسب الشيخ الأنصاري.

(٢) إحياء العلوم.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٧٣.

(٤) رواه البيهقي وجماعة آخرون.

د ـ هل يُشترط في جواز اَغتياب المتجاهر بالفسق تحقّقُ شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم لا؟

والجواب عن جميع هذه الأسئلة يرتبط بفهم النقطة الأساسية والدليل الدقيق في استثناء هذا الموضوع من تحريم الغيبة.

فالظاهر من الأحاديث أعلاه أن لا حرمة للمتجاهر بالفسق (الحرمة التي تمنع جواز الغيبة).

وبعبارة أخرىٰ إن هؤلاء الأفراد المتجاهرين والظالمين وأهل البدع لا حرمة لهم في المجتمع ولا بأس بهتك حرمتهم.

ولهذا السبب لا يلزم الكف عن اغتياب مثل هؤلاء الأفراد وحفظ ماء وجههم.

فلو استعنّا بالأحاديث المذكورة أعلاه كما أشارت عبارات: لا غيبة له، ولا حرمة له وغيرها لاتّضحت أجوبة جميع الأسئلة المتقدمة الذكر ولا حاجة لزيادة التوضيح؛ لأن الأدلّة العقلية والنقلية علىٰ حرمة الغيبة لا تشمل أمثال هؤلاء.

ولكن يجب الانتباه إلىٰ أن المقصود بالمتجاهر بالفسق هو من ألقىٰ جلباب الحياء من وجهه بصورة كليّة، وتجرأ علىٰ جميع الذنوب ولم يبالَ باَرتكابها، ولا يُقصد به جميع من يرتكبون ذنباً معيناً لسببٍ ما، وبهذا يمكن اغتياب هؤلاء الأفراد في المواضع المتجاهر بها فقط.



الفصل السادس

سوء الظن والنظرة المتشائمة

* الحصانة من سوء الظن شرطٌ لإيجاد المجتمع السليم:

قبل كل شيء يلزم وجود الأمن والاطمئنان لبناء المجتمع السليم، فبدونهما لا يمكن تحقيق الحرية التي في غيابها تتعطل الطاقات الفكرية والجسمية والمادية والمعنوية؛ لأن هذه الطاقات تتجمع حول المناطق الآمنة وتفرُّ من ـ نقيضتها ـ غير الآمنة.

ولكن حدود الأمن لا تنحصر بالروح والمادة فقط، بل الأهم منهما هو الأمن على الكرامة وصيانة الشخصية الاجتماعية لأفراد المجتمع.

ومن جهة أخرىٰ ولتكميل هذه الأنواع الثلاثة من الأمن، يلزم وجود نوع آخر، عجزت القوانين الوضعية عن تحقيقه، ألا وهو «الأمن الفكري» الذي حاز قصب السبق في الأهمية من جهات متعددة.

وينقسم الأمن الفكري إلى شعبتين هما:

١ ـ شعور الجميع بالأمن في محيطهم الفكري، وبعبارة أخرىٰ: «الاطمئنان الروحي» أي أن يكون الإنسان مصوناً من الناحية الروحية والفكرية بحيث لا تتعرض روحه للضغوط من أيّة جهة، وأن لا يترك فريسة للعواصف الفكرية المناوئة المزعجة، بل يتمتع بروح هادئة مجردة عن أي اضطراب وقلق وشقاء.

٢ ـ الأمن من وجهة نظر الآخرين: أي أن لا يملي عليه الآخرون في محيطهم الفكري أفكارهم وآراءَهم السيئة الفاسدة، وأن تصان كرامته وشخصيته حتىٰ في دائرة أفكار الآخرين.

وبديهي أن بحث كل واحد من هذه الأنواع الأربعة من الأمن أي المادّي والروحي والشخصي-ماء الوجه- والفكري، لا سيّما شعبتي القسم الرابع، يحتاج إلى حديث طويل لا مجال له هنا، لذا نود أن نبحث القسم الأخير منها، أي الأمن من وجهة نظر الآخرين.

فما تستطيع القوانين والحكومات الوضعية تحقيقه، بغض النظر عن نواقصها الأخرىٰ، هو الأمن الروحي والمادّي وأمن الكرامة والمكانة الاجتماعية فقط.

ولكن الأمن الفكري بشطريه، خاصة الحصانة من آراء الآخرين الفاسدة، لا تتحقق إلا عن طريق الرسالات الإلهية والأديان السماوية والمبادىء الأخلاقية فقط.

فكما نعلم أن القوانين وقواها التنفيذية، التي لها جوانب مادية بصورة عامة، لا تستطيع الوصول إلى (منطقة) القلب والفكر، وليس لها أدنىٰ نفوذ في هذا المجال، والعقائد المذهبية والمبادىء الأخلاقية هي الوحيدة القادرة على النفوذ إلى هذه المنطقة وتحقيق الطمأنينة والاستقرار فيها.

وللإسلام قوانين واسعة ملحوظة في هذا المجال لتأمين ذلك الغرض، تعتبر من مميزاته العظيمة.

قال تعالىٰ في محكم كتابه الكريم في الآية (١٣) من سورة الحجرات مخاطباً عباده المؤمنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾.

ولعل السبب في تعبير القرآن الكريم بعبارة: ﴿كثيراً من الظن﴾ هو كون أغلب ظنون الناس ببعضهم سيئة، لذا فقد حذرهم من خطر

كبير وآفة عظيمة تهدد أمنهم في أفكارهم المتبادلة، وذكرها كمسألة عامة الابتلاء.

ولعل السر في تعبيره بعبارة «بعض الظن إثم» مع أنه أمر باجتناب كثيره في بداية الآية هو وجود احتمال صحة قسم من ظنون الناس ببعضهم، لكن المُسلَّم به هو أن القسم الآخر منها مغلوط لا صحة له، ويُعدُّ ذنباً ومعصية، فلذلك يحكم العقل باجتناب الجميع في هذه الحالة لتوقّي الابتلاء بهذا القسم.

وقد أكدت الأحاديث الإسلامية الشريفة اجتناب سوء الظن بالمؤمنين لدرجة أن الرسول الأكرم محمدﷺ قال: «إن الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظنَّ به ظن السوء»[1]

والجدير بالانتباه إليه في هذه الرواية بشكل خاص هو أنها ذكرت أركان الأمن الأربعة وحرمتها بعبارة واحدة.

❀ ❀ ❀

* أسباب سوء الظن:

قد يبرز سوء الظن بصورة طفيفة، وقد يبرز بصورة حادّة ومتأصلة «بشكل مرض نفسي»، وعلى أية حال فيمكن أن تكون هناك أسباب مختلفة للموضوع، منها:

١ ـ كثيراً ما تكون دوافع سوء الظن، الانتقام والحقد والحسد، فلو عجز الإنسان عن الانتقام من خصومه بصورة علنية أو فضحهم باللسان لهجم من منطقة الفكر والقلب عن طريق اتهامهم بالقبائح ولومهم وتوبيخهم عليها ليشفي غليله بهذه الطريقة، أي أن ما عجز عنه ولم يحصل عليه في الواقع، يحاول الحصول عليه في عالم الذهن والخيال ليحس باللذة والاطمئنان الكاذب.

---

(١) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ٢٨٦.

وتعتبر هذه الحالة إحدىٰ حالات الهروب من الواقع والاعتصام بالوهم والخيال التي أثبتها اليوم علم النفس.

وهذا المعنىٰ لا ينحصر بهذه الحالة، فجميع الحالات التي لا تُشبَع رغبات الإنسان فيها من الخارج تختفي مكبوتة في منطقة اللاشعور، وتندفع وراء البدائل الخيالية والذهنية لتَسُدَّ الفراغ الذي حصل من هذه الناحية، وقد تبرز في عالم المنام أحياناً.

وأحياناً أخرىٰ في عالم الأجواء الشاعرية أو في أحلام اليقظة لذا نرىٰ أن الشعراء المقتدرين، الذي يُلاحظ في أشعارهم المعاناة والحرقة والتأثير، هم ـ علاوة على نبوغهم الشعري ـ ممن واجهوا في حياتهم التيه والضياع والانكسار والفشل، أو ممن تورطوا بالعواطف الجياشة وحالات العشق المذهلة، فأخذوا يفتشون عن معشوقهم في عالم الخيال في اللطائف الشعرية والطرائف الأدبية، فنمت قواهم الخيالية بصورة غير طبيعية. (وكما هو معروف فكلما كان الشعر خيالياً كلما ازداد رونقاً وجمالاً).

والخلاصة هي أن الهروب النفسي إلى الخيال مصدر لكثير من الحالات النفسية التي يُعَدُّ سوء الظن واحداً منها.

٢ ـ أحياناً يكون سبب سوء الظن هو عدم صفاء نفسية الإنسان، كما أن حسن الظن الكثير بالآخرين، قد ينبع من صفاء وطهارة روح المرء، ويظهر هذا لدىٰ البسطاء وقليلي الإطلاع بصورة أوضح.

٣ ـ تبرئة الذات أو تبرير فعلها أمام محكمة الوجدان (الضمير): يعتبر هذا عاملاً آخر من عوامل سوء الظن أيضاً؛ لأن الإنسان يحاول أن يجد له شركاء في ذنبه عن هذا الطريق، فيظن بالآخرين سوءاً ليبرر قبائحه أو يقلل من أثرها أو يظهرها بمظهر طبيعي ليقول: «إني لستُ الوحيد الذي تورط بمثل هذه القضية الرذيلة».

٤ ـ قد ينشأ سوء الظن أحياناً من التكبّر وحب النفس؛ لأن أمثال هؤلاء يرغبون بالتقدم على الأقران بأية وسيلة، لذا يحاولون التفكير بإيجاد عيوب لهم كي يصغروهم ويعظموا أنفُسهم.

٥ ـ المحيط التربوي وإيحاءات الأبوين والمعلم، من الأسباب المهمة لذلك.

٦ ـ مصاحبة الأشرار: فغالباً ما تكون ملاكات آراء الإنسان الكلية استقراءات ناقصة للأفراد الذين يتعامل معهم، كما أن آراء الناس، حول مدينة أو قرية أو دولة أو شعب من الشعوب، نابعة من خلطائهم، فلو كانوا أشراراً لساءَ ظنهمْ بالجميع طبعاً، كما جاء ذلك في الحديث الشريف: «مجالسة الأشرار توجب سوء الظن بالأخيار».

٧ ـ قد يكون لسوء الظن بعض الأسباب الواقعية أحياناً، كأن يعود الفساد في مكان أو قوم ما، فيسوءُ ظن الإنسان بالجميع، وفق المبدأ العقلي: «الظن يلحق الشيء بالأعم الأغلب».

* الأضرار الاجتماعية للنظرة المتشائمة:

إن الأضرار الاجتماعية لهذا الانحراف الأخلاقي كبيرة جداً وآثاره السيئة واسعة ومن جملتها:

١ ـ يتسبب سوء الظن في انعدام الفهم الاجتماعي الصحيح؛ لأن الذين يصابون بهذه الآفة وينظرون لكل شيء بنظرة متشائمة يتورطون بأخطاء كثيرة في معرفة وضعية الأفراد وأحداث الحياة والأسباب والدوافع الصحيحة لما يدور حولهم في المجتمع، ويعيشون في عالم خيالي على خلاف ما هو موجود في الواقع، وإن انعدام الفهم الصحيح لأحداث الحياة سيسبب التخلف وتفويت الفرص وفقد الأصدقاء، والسقوط في خضم هذه الأحداث.

٢ ـ إن النظرة المتشائمة وسوء الظن من أكبر موانع التعاون الاجتماعي والاتحاد والإلفة القلبية، مما يجر الإنسان إلى العزلة والانزواء والحذر من معاشرة الآخرين، وإلى جميع المفاسد الاجتماعية الناشئة من هذه الرذائل، وهذا العيب يسلب من الناس حُسن اعتماد بعضهم على البعض وبالتالي تعاونهم لحل المشكلات.

٣ ـ سوء الظن يقود الإنسان إلى التجسس على الآخرين، وكما ذكرنا سابقاً فإن التجسس منبع للغيبة والمفاسد الناشئة عنها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في الآية (١٣) من سورة الحجرات.

٤ ـ النظرة المتشائمة منشأ لكثير من موارد العداء والبغضاء، وأحياناً الحروب والنزاعات الدموية. فما أكثر العوائل التي تحطمت بمعول النظرة المتشائمة وما أكثر الأبرياء الذين استسلموا للموت نتيجة لسوء ظن ألصق بهم، وقد أشعل الظن السيء فتيل حروب عظيمة. قال تعالىٰ: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. . . . الآية (٦) من سورة الحجرات.

فكلنا يعلم كيف أن نظرة «الوليد» المتشائمة وسوء ظنه أوشكت أن تبيد طائفة من الناس، وكيف أن القرآن الكريم وضع حداً لهذه الكارثة الكبيرة عن طريق دعوة المسلمين إلى التبيُّن والتحقق في مثل هذه الحالات (ولو أن البعض احتملوا تعمد الوليد لهذه المسألة).

٥ ـ إن سوء الظن يطفىء سراج المحبة والصداقة بين الأصدقاء وينمي فيهم روح البغض والنفاق؛ لأن شخصاً كهذا يكون مجبراً على التظاهر بالمحبة لأصدقائه في الوقت الذي يخلو باطنه منها، وينظر إليهم نظرة متشائمة تبذر فيه روح البغض والنفاق.

وخلاصة القول هي أن الأضرار الاجتماعية لسوء الظن أكثر مما نتصورها، وما ذكرناه آنفاً ما هو إلا قسم منها.



* الأضرار الفردية لسوء الظن:

إن لسوء الظن والنظرة المتشائمة، بغض النظر عن أضرارها الاجتماعية، أضراراً فردية كثيرة أيضاً، لا يمكن تلاقيها، ونشير هنا إلى عدد من أقسامها المهمة:

١ ـ إن النظرة المتشائمة منشأ لشقاء مؤلم للروح وعذاب للجسم واضطراب وقلق للخاطر، فالمتشائمون دائماً منزعجون ويتعذبون بأوهامهم وتصوراتهم الخاطئة عن الآخرين وأحداث الحياة، فهم يفرون من معاشرة الآخرين التي تعتبر من الوسائل الطبيعية المؤثرة في إنعاش الروح الإنسانية؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا عمل أي شخص بريئاً من الأغراض المريضة!

فهم يحذرون من الانفتاح القلبي الذي يُعدُّ وسيلة لإزالة أو تخفيف الهموم والمصائب؛ لأنهم يحتملون في هذا فضح أسرارهم أو خلق مشاكل أخرىٰ لهم! لذا غالباً ما تراهم خاملين مهمومين ويتحولون تدريجياً إلىٰ موجودات عاطلة لا فائدة فيها.

فلو اشتدت حالة التشاؤم هذه عند الإنسان لسببت له عواقب وخيمة لدرجة تجعله يستوحش من كل شيء، ويفسر جميع حوادث الحياة تفسيراً سلبياً ويتصور أعمال الآخرين الطبيعية مؤامرات ضده ويعتقد بأن الجميع مصممون علىٰ إيذائه.

ومن البديهي أنه يجب اعتبار هذه الحالة جزءاً من الأمراض النفسية وخارجة عن علم الأخلاق. لأن جميع الانحرافات الأخلاقية ترتبط بعلم الأخلاق ما لم تتعد حدودها الطبيعية، وينفرد علماء الأخلاق في علاجها، لكنها عندما تخرج عن حالتها الطبيعية، التي يمكن لمسها عند أغلب الناس، تخرج من موضوع علم الأخلاق لتصير مرضاً، فجميع حالات: الحسد والتكبر والحقد والمراءاة وما شاكلها، تدخل في هذا القسم.

والجدير بالانتباه إليه في سورة المنافقين هو أن الله سبحانه وتعالىٰ، ضمن بيانه لحالات المنافقين، اعتبر سوء الظن والنظرة المتشائمة من صفاتهم حيث قال عز وجل: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾...

وهذا النوع من سوء الظن طبيعي ومتوقع الحدوث؛ لأنهم

يجعلون أنفسهم مقياساً للآخرين ويتصورون أن الآخرين يعلمون بسرائرهم، ويعملون على الانتقام منهم، لذلك فهم يعيشون حالة خوف مستمرة، والمثل المعروف (المريب خائف) أو (الخائن خائف) يعبر عن هذه الحالة.

٢ ـ قد تؤدي النظرة المتشائمة إلى الخلق، إلى التشاؤم وسوء الظن بالخالق وتسري إلى المبادىء العقدية للإنسان فيشك أحياناً بعدالة الله وأحياناً أخرىٰ بقدرته عز وجل: وقد يشك في الأنبياء أيضاً ويتصور في قلبه أن رسائلهم السماوية ما هي إلاً تمثيل مسرحي للتسلط على الناس وكسب العوام، مع أنه يمكن أن يعتقد ظاهرياً بأصول الدين.

ويمكن أن يكون هذا هو السبب في عدم تصديق الكثير من المجرمين والمنافقين بدعوات الأنبياء.

٣ ـ المتشائمون محرومون من صفاء الروح في الغالب؛ لأنهم مشغولون في داخلهم باغتياب الآخرين، لذا أطلق بعض علماء الأخلاق على سوء الظن تسمية «الغيبة القلبية».

ذلك هو قسم من الأضرار الفردية لسوء الظن والنظرة المتشائمة.



*** طرق مكافحة سوء الظن:**

قبل كل شيء يرد الإشكال التالي الذي يلزم رفعه:

لم يكن موضوع سوء الظن أمراً إرادياً في أغلب الأحيان لكي يمكن اجتنابه، بل يمكن أن يجد الظن السيّء طريقه إلى فكر الإنسان بصورة لا إرادية نتيجةً لرؤية مشهدٍ معين أو سماع حديث ما أو خطور خاطرة معينة في الذهن، إذن كيف يمكن فرض ممنوعية هذا الأمر وحرمته؟، الرواية الشهيرة التالية تشير إلى هذا المضمون: «ثلاثة لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظن».

وقد سلك المحققون مسالك مختلفة لدفع هذا الإشكال:

١ ـ اعتقد البعض بأن الظن السيء غير ممنوع في حد ذاته واستدلّوا على قولهم بالحديث النبوي المعروف: «ثلاثة في المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه»[١]

٢ ـ قال بعض آخر: إن المراد بتحريم سوء الظن هو عدم ترتيب أثر قلبي أو خارجي عليه، أي أن لا يعقد قلبه عليه، وهو أمرٌ إرادي، وأن لا يبغض ويكره ذلك الشخص الواقع في دائرة (سوء ظنه)، وكذلك يجب عليه أن لا يغير أسلوب تعامله ومعاشرته له. وعليه فالمقصود من عدم أعمال سوء الظن هو المعنىٰ الواسع للكلمة الذي يشمل الذهن وخارجه.

ولا ريب في أن كلا المعنيين على خلاف الظاهر من آية اجتناب سوء الظن، والأحاديث الواردة في ذلك؛ لأنه قد ورد فيها نهي صريح عن سوء الظن بذاته، ولا وجود لانعقاد القلب عليه لكي يمكن اجتنابه.

وطبيعي أن مسألة الاعتقاد وانعقاد القلب هي مسألة إرادية، على أنّ الاعتقاد والإيمان هما غير العلم، لكن مسألة الشعور بالبغض والكراهية ليست كذلك.

٣ ـ ومع أن سوء الظن في الحقيقة الغالبة ليس إرادياً في وجوده، فإن استمراره مسألة إرادية؛ لأنه ينبع عادة من سلسلة من الدوافع الخيالية كالاستعجال في الحكم، لذلك فإن التفكر والتدبّر في جوانب الموضوع والتدقيق في احتمالاته المختلفة يمكن أن يزيله بسرعة، ومن هنا فقد أكدت الأخبار والروايات دعوة الإنسان إلى التحري عن محامل الخير في أعمال المسلمين قدر المستطاع لكي يمحو هذه الخواطر الوهمية.

---

(١) إحياء العلوم، الغزالي، ج ٣.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك وأنت تجد لها في الخير سبيلا»[1]. بناءً على هذا فالخارج عن إرادتنا هو تلك الخواطر القلبية المفاجئة فقط، أما سوء الظن المزمن فهو مسألة إرادية، وهذا يطابق ظاهر الآية والروايات الشريفة، التي تأمرنا باجتناب سوء الظن، بصورة تامة، وعليه فلا دليل علىٰ تأويل الموضوعات خلاف ما هي عليه في الظاهر.

ويظهر من حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي خاطب به محمد بن الفضل قائلاً له: «كذّب سمعك وبصرك في أخيك» أنه يشير إلى هذا الموضوع، أي إلى السعي للعثور علىٰ محامل صحيحة ومحو الهواجس الشيطانية الواهية.

* طرق علاج سوء الظن:

بعد أن اتّضح المقصود من تحريم سوء الظن، آنَ الأوان لكي نتطرق إلىٰ طرق علاجه.

وكما أشرنا مراراً فإنه ينبغي التحري عن طريق علاج الأمراض الروحية والجسمية والأخلاقية عن أسباب ظهورها.

وعلى هذا الأساس ومع أخذ بحثنا السابق ـ عن أسباب وعوامل سوء الظن ـ بنظر الاعتبار، نتوصَّل إلى النتائج التالية:

١ ـ يجب علينا، لقلع جذور سوء الظن، إصلاح أنفسنا قبل كل شيء، لكي لا نحكم بفساد الآخرين فيما لو جعلنا أنفسنا مقياساً لهم، ونذكّر أنفسنا، طيلة الوقت، بأن لا نتصور الآخرين مثلنا، فلا يستبعدُ أن تكون لهم معنويات، أفضل وأعلى مما لدينا بدرجات. فينبغي علينا الالتفات إلى أن القياس على أنفسنا ليس له أي أساس علمي أو منطقي، بل قد ينبع من غريزة (حب الذات) عند الإنسان، لذا يجب أن لا نجعله محوراً لآرائنا بشأن الآخرين.

---

(١) الكافي.

٢ ـ يجب علينا تطهير المحيط الذي نعيش فيه، والذي يمكن أن يكون مصدراً لنظرتنا المتشائمة وسوء ظننا بالآخرين، وأن نترك معاشرة الأشرار التي توجب سوء الظن بالأخيار، وأن نلتفت دائماً إلى أن مثل هذه المعاشرات السامة، ـ بغض النظر عن عيوبها الكثيرة الأخرىٰ تعتّم أفق نظرنا الفكري في تقييم شخصية الآخرين وتورطنا بأخطاء فادحة في معرفة الناس، ليس لها أضرار أخلاقية ومعنوية فقط، بل تحرمنا من الاستفادة من المنابع الفكرية والأخلاقية الموجودة لدىٰ الأخيار عن طريق سوء الظن.

فلو كانت بيئتنا التربوية ملوثة وفاسدة منذ الصغر، لوجب علينا محو إيحاءاتها السيئة، التي أضحت مصدراً لنظرتنا المتشائمة، عن طريق التلقينات الصالحة ومطالعة أحوال الأخيار، وعلى الأخص حياة الصالحين والأبرار في التاريخ بصورة متمعّنة، ومعاشرة الطاهرين لنغسل أدمغتنا من آثار الطفولة السلبية.

٣ ـ يجب علينا دائماً أن نتذكّر أضرار النظرة المشائمة الفردية والاجتماعية وأخطارها الجسيمة التي تصيبنا وتصيب المجتمع، ونفكر بالبحوث السابقة التي أوردناها في هذا المجال ونلتفت إلى حقيقة أن لو نفعت النظرة المتشائمة وسوء الظن في تسكين روح الانتقام أو الأنانية الموجودة في نفوسنا ومنحتنا سكوناً مؤقتاً وكاذباً، لما عادل ذلك الأضرار الجسيمة التي تنتظرنا في هذا الطريق.

٤ ـ لو كان السبب في سوء ظننا ونظرتنا المتشائمة هو الانحرافات الأخلاقية للآخرين كالحقد والأنانية وتبرير الأعمال السيئة والهروب من تأنيب الضمير، لوجب وضع حد لها عن طريق مراقبة نفوسنا، أي نقل هذه العوامل من مرحلة الضمير الميت إلى مرحلة الضمير الحي، إذ أن لهذه المسألة منتهىٰ الأهمية في علاج الانحرافات الأخلاقية، ففي هذه الحالات التي تؤثر دوافع مرحلة الضمير الميت في أعمال وأفكار الإنسان، يجب نقلها إلى مرحلة الضمير الحي عن

طريق المراقبة، ليكون لها الأثر البليغ في إصلاح حالنا، وقد حازت هذه المسألة اهتمام علماء النفس اليوم.

*** ملاحظة:**

وفي ختام بحث سوء الظن يجب أن نذكر: أن للمحمل السيّء ولسوء الظن جانباً منطقياً في حالة واحدة فقط، هي المحيط الذي انحرف وفسد أغلب أفراده، ففي مثل هذا المحيط وطبقاً لنظرية الاحتمالات لا يمكن حسن الظن بالأفراد المشكوكين؛ لأن احتمال فسادهم أكبر من احتمال صلاحهم، ولكن يجب الالتفات هنا إلى أنه ينبغي على الفرد في مثل هذا المحيط أن لا يرتب على سوء ظنه أثراً أيضاً، سوىٰ ما يتعلق بموارد الاحتياط. أي أنه في الوقت الذي يراعي فيه الاحتياطات اللازمة يجب عليه اجتناب التظاهر بالأعمال التي توحي بسوء ظنه وعدم ثقته بالطرف المقابل، وأن لا يغفل عن احتمال كون هذا الشخص المشكوك الحال من القلة الصالحة في ذلك المجتمع، ويجب أيضاً حصر هذا الأسلوب من التعامل، بالمفاسد السارية في المجتمع، أما الحالات الأخرىٰ فيجب العمل فيها بحسن الظن التام.

قال أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إذا غلب الفساد على أهل الزمان فأحسن الرجلُ برجلٍ الظنَّ فقد غرر».



الفصل السابع

المجتمع السليم في ضوء الأخلاق

* بالتخلّي عن الأخلاق ينهار أساس المجتمع السليم:

كما نعلم فإن الإنسان اجتماعي بالطبع، ولا ريب في كون المجتمع من أهم عوامل تطور وتقدم أو تخلف وانحطاط البشرية.

ويعتقد الباحثون الاجتماعيون بأن الإنسان بانسلاخه عن المجتمع سوف يخسر كلَّ شيء (العلوم والتكامل الروحي، والعواطف وحتىٰ طريقة التكلم وما شاكل ذلك).

والشاهد على هذا القول هو حالة الأطفال الذين ترعرعوا مع الحيوانات الوحشية، لأسباب معينة، في بيئة غير إنسانية كالغابات. وقد نقل التاريخ نماذج من حالات هؤلاء الأطفال...، فهم ليسوا عاجزين عن التكلم وفهم الأهداف السامية للحياة الإنسانية فقط، بل لم يلْمَسْ فيهم أثر للعواطف الإنسانية أيضاً، ويتصرفون كالحيوانات الوحشية بالضبط.

وملاحظة حالة البدو والقبائل المتنقلة الصغيرة والمحدودة القليلة الاحتكاك بالآخرين يمكن أن تعطي صورة واضحة عن مصير الإنسان فيما لو انعزل عن المجتمع يوماً ما؟!

هذه الأدلة، وأدلة كثيرة أخرىٰ تؤيد العبارة التي نادىٰ بها بعض الباحثين الاجتماعيين، «المجتمع قبل الفرد» بصورة جيّدة.

ويمكن أن يكون الفرد قد خلق قبل المجتمع ككائن حي، لكنه لم يصر إنساناً إلا بعد ظهور المجتمع.

فكلما توسعت العلاقات الاجتماعية، ازدهرت الحضارة البشرية.

وإن سهولة المواصلات في عصرنا الحالي، بأدائها إلى التقريب بين الأفراد، هي إحدىٰ أسباب نشوء الحضارة الحالية، ومقياس لمعرفة درجة تطور بلدان العالم المختلفة.

* خصائص الحياة الاجتماعية الإنسانية:

لم تنحصر الحياة الاجتماعية بالإنسان فقط، بل هناك صنف من الحشرات يُدعى «بالحشرات الاجتماعية» كالنحل والنمل يعيش حياة اجتماعية منتظمة ومحسوسة، وهناك صنف من الطيور يُدعىٰ بالطيور الاجتماعية كاللقالق والنسور، وقد عُرفَتْ من بين الحيوانات الوحشية مجموعة تُدعىٰ بالحيوانات الاجتماعية كالقردة.

ويمكن أن تكون الحياة الاجتماعية لمثل هذه الحيوانات أكثر تطوراً حتىٰ من الحياة البشرية في بعض الجهات، فمثلاً لا يوجد في خلايا النحل حتىٰ عاطل أو جائع واحد، في حين أن أكثر بلدان العالم تطوراً ليست كذلك.

ومع هذا فهناك فرقان أساسيان يميزان حياتها الاجتماعية عن الحياة الاجتماعية الإنسانية وهما:

أ ـ مهما بلغت الحياة الاجتماعية الحيوانية من السمو والتكامل فإنها تتحدد بأقسام معينة، وتنحصر وتتلخص بعدة ظواهر كبناء الخلية وجمع الغذاء ورعاية الصغار وما شاكل ذلك. في حين أن مظاهر الحياة الاجتماعية الإنسانية كثيرة جداً وغير محدودة تقريباً، ولا تنحصر بظواهر معدودة.

ب ـ إن الحياة الاجتماعية الحيوانية ذات طَوْر واحد ومجردة من التحول والتطور، وبعبارة أخرىٰ ثابتة على حالها، فعلىٰ سبيل المثال

نجد أن خلايا النحل في يومنا هذا تتشابه مع نظائرها منذ ملايين السنين، بصورة تامة، مما يدل بوضوح على ثبات أبعادها الهندسية وطريقة حياتها بصورة عامة.

في حين نجد أن الحياة الاجتماعية الإنسانية تتغير خلال هذه المدة بل في قرن واحد أو أقل منه، في جميع مراحلها أحياناً بحيث لا تقارن بالسابق أبداً.

وهذان الفرقان الأساسيان هما اللذان يميزان الحياة الاجتماعية الإنسانية عن الحيوانية.

وخلاصة القول أن الإنسان مدين للمجتمع بجميع الكمالات التي وصل إليها، سواء في النواحي الفكرية والعلمية والأخلاقية، أم في النواحي المادية والتكنولوجية، أم في غيرها، ولولاه لفقدت الحضارة والإنسانية معناها.

* سبب ظهور المجتمع:

هناك نقاش طويل بين الباحثين الاجتماعيين بشأن السبب الذي دفع الإنسان إلى تشكيل الحياة الاجتماعية وقبول شروطها وقوانينها الصعبة نسبياً، ونذكر قسماً من الأقوال المختلفة في هذا الشأن كأمثلة:

١ ـ القول بأن غريزة الانسجام والإلفة موجودة في فطرة الإنسان وهي تدفعه غريزياً نحو المجتمع.

٢ ـ القول بأن العامل الأساسي في رغبة الإنسان بالحياة الاجتماعية هو خوفه من الظواهر الطبيعية المخيفة والحيوانات الوحشية.

٣ ـ القول بأن غريزة الاستخدام الكامنة في وجود الإنسان هي التي تدفعه إلىٰ الحياة الاجتماعية.

٤ ـ القول بأن الحياة الاجتماعية الحالية هي وليدة مجموعة من عادات وتقاليد تحولت بالتدريج إلىٰ هذا الشكل.

٥ ـ القوب بأن تعدد احتياجات الإنسان وعدم قدرته منفرداً على تأمينها، هو الذي دفعه إلى الحياة الاجتماعية.

٦ ـ القول بأن الحياة الاجتماعية الإنسانية وليدة الحياة الأسريّة والتوسع التدريجي للأُسر.

٧ ـ القول بأنه لا يمكن التكهن بالسبب الذي دفع بالإنسان إلى الحياة الاجتماعية قبل ملايين السنين، لأن مرور القرون والأعصار قد أرخىٰ ستار الغموض علىٰ هذا الموضوع وموضوعات مشابهة أُخرىٰ، وليس لدينا أي سند معتبر للحكم في هذا الموضوع.

ومع أن الرأي الأخير هو أقرب إلى الواقع من سواه، وليس من السهل معرفة العامل الأساسي الذي دفع بالإنسان إلى الحياة الاجتماعية منذ القدم، لكنه لا ريب في أن استمرار الحياة الاجتماعية الحالية مدين للرغبة بالتكامل وتوسع الحاجات الاجتماعية وعدم قدرة الفرد على تأمينها.

ولتوضيح ذلك: فمن جهة يرىٰ الإنسان أن احتياجاته الجسمية كالمأكل والملبس والمسكن والدواء، واحتياجاته الروحية كالتعلم وتنمية الرغبات والمواهب، والشعور بالطمأنينة الروحية، وكسب عواطف الآخرين، لدرجة من التنوع والاتساع بحيث لا يمكن لأحد أن يؤمنها بمفرده أبداً، بل أن تأمين كل واحدة من هذه الحاجات ـ وفقاً لطبع الإنسان المعقد ـ هو من شأن أفراد ومجاميع مختصة وموهوبة في الموضوع.

ومن جهة أخرىٰ فإن هروب الإنسان من الحياة الرتيبة الثابتة ورغبته إلى التطور والتكامل في الحياة ـ التي تعتبر من مميزات حياته ويندر وجودها في الحيوانات ـ تجبره على الانضمام إلى الحياة الاجتماعية، لأن هذا الهدف لا يتحقق إلا بوحدة الأفكار والقوىٰ والاستعدادات المختلفة. وهذان الموضوعان هما من أهم العوامل التي تدفع الإنسان إلى مواصلة الحياة الاجتماعية.



* المكانة الاجتماعية:

رغم أن الناس سواسية أمام جميع القوانين من ناحية الحقوق الاجتماعية، ومبدأ المساواة أمام القانون هو من أهم مبادىء القوانين الحقوقية الراقية، لكن مراعاة هذا المبدأ ليست بدافع تساوي المكانة الاجتماعية الواقعية لأفراد المجتمع، بل هي على الأغلب بهدف تنظيم الأمور ومنع استغلال الجبابرة والمتسلطين والمستعمرين. وإلا فإن من البديهي وجود الفرق الشاسع في مكانة الأفراد الاجتماعية. فمكانة عالم خبير مقدس محترم ومكانة فرد فوضوي فاسد أمي لا تستويان. ولكن لو وضعت فروق بين الأفراد من ناحية حقوقهم الاجتماعية لحصلت مفاسد أكبر بكثير من مفسدة مراعاة ميزة المكانة الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

وبصورة عامة فإن المكانة الاجتماعية للأفراد تتحدد بمقدار الفائدة التي يقدمونها للمجتمع والحديث النبوي الشريف يشير إلى هذه الحقيقة: «خير الناس أنفعهم للناس».



* الإسلام والمسائل الاجتماعية:

لا شك في حقيقة عدم وجود نظام يقدس العلاقة الموجودة بين الفرد والمجتمع ويدعم شرائع المجتمع بأحكامه وقوانينه كالإسلام، وبديهي فإن ديناً إلهياً خالداً وضامناً لتربية مواهب الإنسان الكامنة فيه وتكامله وتقدمه، لا يمكن أن يكون إلا هكذا.

والنقاط التالية كافية لتوضيخ أهمية المجتمع في الإسلام والعناية الخاصة التي أولاها الإسلام لهذا الموضوع:

١ ـ لا تعجب إذا ما قلنا بخلو القوانين الإسلامية الأساسية حتى من قانون فردي واحد! وخير دليل على هذا هو الفقه الإسلامي الذي يتركب من العبادات والمعاملات والسياسات. ولا يحتاج القسمان

الثاني والثالث، اللذان يشكلان ثقله الأكبر، إلى توضيح كونه ديناً اجتماعياً، أما القسم الأوّل (العبادات) القائم على أساس العلاقة بين المخلوق والخالق، فنرىٰ أن الروح الاجتماعية سائدة فيه أيضاً.

والفرائض اليومية، التي تعتبر من أهم العبادات الإسلامية، ممزوجة بالمفاهيم الاجتماعية لدرجة لا تقبل التفكيك، وإلا لفقدت هذه المفاهيم معناها. فما الأذان والإقامة، اللذان هما من مقدمات الصلاة، سوىٰ دعوة للاجتماع لأداء هذه الفريضة بصورة جماية، ولا معنىٰ لهما في حالة الانفراد غير صيانة سنة معينة وإيجاد حالة من التهيّؤ الروحي لدخول هذه الفريضة.

وكذلك سورة الحمد التي تقرأ في بداية الصلاة، فجميع المناجاة والدعاء والثناء الموجودة فيها هي بصيغة الجمع (نعبُد، نَسْتعين، أهدنا). والتسليم الذي في آخر الصلاة يُؤَدّىٰ بصيغة الجمع أيضاً، وأنه يكاد يفقد محتواه في حالة الانفراد فجميع هذه الشواهد تدل على أن محور هذه الفريضة الإلهية العظيمة قائم على أساس الجماعة، علاوة على التأكيدات المتوالية التي تحث على صلاة الجماعة.

والحج من أكثر جميع العبادات الإسلامية انقطاعاً إلى الله (الانقطاع عن العالم المادي ومتعلقاته وخصائصه)، ومع هذا فالعجيب أنه أقوىٰ مساساً من جميع العبادات لطبيعة المظهر الاجتماعي وآثاره.

٢ ـ إن الروابط الاجتماعية في الإسلام على درجة من الأهمية، وقد عدها القرآن من آيات وعلائم توحيد الباري تعالىٰ: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (الروم ـ الآية ٣١).

٣ ـ صرح القرآن الكريم بأن إحدى معاجز الرسول الأكرم محمدﷺ هي التأليف بين قلوب المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ (الآيتان ٦٢ و٦٣ من سورة الأنفال).

تشير هذه الآية بوضوح إلى أن الماديات لا تكفي وحدها لإيجاد الإلفة، بل هي بذاتها من عوامل التفرقة والتنافس والتنازع، بعكس الإيمان والمسائل الروحية.

ومما يجب الالتفات إليه في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالىٰ قد ذكر تأييد المؤمنين بعد تأييده مباشرة مما يدل على الأهمية الفائقة للموضوع.

٤ ـ اعتبر القرآن الكريم الفرقة والنفاق بمنزلة الابتلاءات السماوية فقد قال تعالىٰ: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يُلْبسَكم شِيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ (الآية ٦٦، من سورة الأنعام).

ووصفها كحفرة من النار تلتهم كل شيء وتحوله إلى رماد: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فإنقذكم منها﴾ (آل عمران، الآية ١٠٣).

٥ ـ وصف القرآن الكريم علاقة المؤمنين ببعضهم بالإخوة، التي هي من أقرب وأعز أواصر القرابة، التي تقوم علىٰ أساس الاحترام المتبادل.

٦ ـ لا شيء في الإسلام أبغض من إيجاد العداوة والفرقة بين المسلمين، كما لا شيء أحب في الإسلام من إيجاد الإلفة بين الناس.

جاء في كتاب الاحتجاج عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن من أكبر السحر النميمة يفرق بها بين المتحابين، ويجلب بها العداوة بين المتصافين ويسفك بها الدماء، وتهدم بها الدور، وتكشف بها الستور، والنمام شر من وطأ الأرض بقدم».

٧ ـ لم يسمح الإسلام للمسلمين بهجر بعضهم، إلا في حالات استثنائية، لأثر ذلك في إضعاف أواصر المودة فيما بينهم، وإزالة المحبة من قلوبهم.

فقد حرمت الأحاديث المنقولة عن الأئمة المعصومين هذا العمل ونهت عنه بشدة في أكثر من سبعة مواضع وأجازته في الضرورة لثلاثة أيام فقط. قال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»(١).

وقال أيضاً: «نُهي عن الهجران فإن كان لا بدّ فلا يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام، فمن كان مهاجراً لأخيه أكثر من ذلك كانت النار أولىٰ»(٢).

ففي هذه الأحاديث اعتبر الأئمة المعصومون عليهم السلام مواصلة الهجران خروجاً من حقيقة الإسلام، وصرحوا بأن من سبق أخاه بالسلام كان السابق إلى الجنة يوم الحساب.

٨ ـ اعتبر الإسلام صفات المحبة والأخوة والمواساة والتعاون، من حقوق المسلمين على بعضهم، وواجب عليهم الالتزام بها. قال الإمام الصادق عليه السلام: «يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل، والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتىٰ تكونوا كما أمركم الله عز وجل «رحماء بينهم»»(٣).

٩ ـ لم يذكر الإسلام خصال المحبة والصداقة والتعاون الاجتماعي والمساواة كقوانين وواجبات فقط، بل وضع مناهج شاملة لتحقيقها وتنفيذها أيضاً.

فقد حرّم جميع عوامل التفرقة والنفاق، كالغيبة والنميمة والتفاخر وسوء الظن، والتنابز بالألقاب السيئة، وكثرة المزاح وغيرها، وامتدح وحبب عوامل توطيد المحبة والمودة والثقة المتبادلة، كالتزاور والمصافحة والمعانقة وحسن الظن وإظهار المحبة للطرف المقابل والدفاع عن حرمة الغائب، وإصلاح ذات البين، والسعي في قضاء حوائج الآخرين وغيرها. وعليه فقد وضع حجر الأساس لبناء مجتمع

(١) و(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، الباب ١٤٤، ص ٥٨٤.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٥٢. والآية في سورة الفتح رقم ٢٩.

إنساني بمعنىٰ الكلمة، قائم على أساس العواطف الصادقة، وأَولىٰ هذه المسألة درجة من الأهمية، حتىٰ اعتبرها من ضروريات الحياة البشرية.

قال الرسول الأكرم محمدﷺ: «إن المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن القلب الظمآن إلى الماء البارد»[1].

والذي نستنتجه من هذا التعبير هو أن حاجة أفراد المجتمع إلى الحياة الاجتماعية هي حاجة طبيعية وفطرية وبدونها تستحيل الحياة البشرية.

١٠ ـ الجدير بالانتباه إليه هو أن الإسلام لم يكتفِ بحد معين من الروابط الاجتماعية، بل سعى دائماً لتقوية هذه الأواصر قد المستطاع، وأمعن في هذا الموضوع إلى الحد الذي يحث فيه المؤمن على الارتباط روحياً كالجسد الواحد، قال الرسول الأكرم محمدﷺ: «ألا وإن ودَّ المؤمن من أعظم أسباب الإيمان... ألا وإن المؤمِنَيْن إن اتحدا في الله كانا كالجسد الواحد، إذا اشتكىٰ أحدهما من جسده موضعاً، وجد الآخر ألم ذلك الموضع»[2].

ويُفهم من هذا الحديث أن المحبة بين مؤمِنَيْن يمكن أن تصل لدرجة أن جسديهما يصيران كالجسد الواحد، فإذا اشتكىٰ أحدهما من جسده موضعاً وجد الآخر ألم ذلك الموضع، بدون سبب خاص، أي يرتبطان روحياً لدرجة أن الألم ينتقل من جسد أحدهما إلى جسد الآخر.

ولا يستبعدُ ذلك من جهتين:

الأولىٰ: إن ارتباط الروح بالجسد بدرجة من القوة بحيث تترك الاضطرابات الروحية أثراً عميقاً في الجسد.

ويعتقد أطباء النفس اليوم بأن الكثير من الأمراض الجسمية التي

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٧٨.

(٢) كنز الكراجكي عن بحار الأنوار، ج ١٥، كتاب العشرة، ص ٧٨.

ليست لها علة محسوسة، كإصابات الأعضاء والميكروبات، هي وليدة الاضطرابات النفسية.

الثانية: لقد ثبت حديثاً إمكانية التبادل الفكري بين شخصين من مسافات بعيدة، دون أية وسيلة فيزيائية، وذلك بالانسجام الروحي الخاص أو التمرين المستمر بينهما.

ولذلك يمكن انتقال آلام فرد معين إلى صاحبه عن طريق هذه الرابطة، فتؤثر في جسده، فيجد الألم في ذلك الموضع نفسه.

١١ ـ الالتحاق بالسواد الأعظم: وهو من وصايا الإسلام، فقد جاء في خطبة أمير المؤمنين ومولى الموحدين الإمام علي عليه السلام لدحض فكرة الخوارج:

«والزموا السواد الأعظم؛ فإن يد الله على الجماعة، وإياكم والفرقة؛ فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب... وإنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، وإحياؤه الاجتماع علي، وإماتته الافتراق عنه»[١]...

وتشير مطالعة أحوال الماضين إلى أن المجتمعات الصغيرة كانت أكثر تخلفاً عن ركب الثقافة ومظاهر الحضارة الإنسانية، وإن الثقافات والحضارات الراقية قد ظهرت في المجتمعات الكبيرة الواسعة.

ولهذا فقد حث الإمام علي عليه السلام في كلامه الأنف على ملازمة المجتمعات الكبيرة أولاً، ثم أشار إلى أن يد الله على الجماعة بعكس الشاذين فهم طُعْمٌ للشيطان ومحرومون من يد العناية الإلهية، والتشبيه الذي أورده عليه السلام في الجملة الأخرى يدل على أن التغلب على المشاكل والنجاة من مخالب المهلكات يتحقق في عمق المجتمع فقط، لذلك فالمجتمع الأكثر كثافة أكبر صموداً أمام الحوادث، والنصر حليفه في الشدائد.

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٢٣.

وفي النهاية صرح عليه السلام بأن إحياء القرآن بالاتحاد والاجتماع وإماتته بالافتراق عنه والانفراد في انتخاب الطريف!.

إضافة إلى هذا فإنه يمكن استنتاج اهتمام الإسلام بالمجتمعات الكبيرة من الموضوعين التاليين:

١ ـ إن ثواب صلاة الجماعة بعدد أفراد تلك الجماعة وإن ثواب المساجد يتناسب مع مكانتها الاجتماعية، ابتداءً من مسجد السوق والقبيلة والمسجد الجامع لكل مدينة وغيرها من مساجد المسلمين وانتهاءً بالمسجد الحرام الذي يعد أكبر مركز للتجمعات الإسلامية.

٢ ـ حث الإسلام على التكاثر وزيادة النوع البشري، قال صلى الله عليه وآله: «أطلبوا الولد فإني مكاثرٌ بكم الأمم غداً»[١].

ويلزم الانتباه هنا إلى النقطة التالية:

* يمكن أن يسبب التكاثر بعض الاضطرابات والمشاكل لبعض المجتمعات كنقص المواد الغذائية وما شاكل ذلك، ولكن هذه المشاكل المؤقتة والاستثنائية لا يمكنها أبداً أن تقلل من قيمة الذخائر الإنسانية الثمينة لمجتمع ما، ويمكن أن تحصل هذه المشاكل في مجتمع فقير اقتصادياً كذلك.

ومسألة تحديد النسل تنادي بها جماعتان: الأولى جماعة حب الراحة الذين يفضلون راحتهم على المصلحة العامة، ويسعون للحصول على أكبر مستوى ممكن من الرفاه، والثانية جماعة التفكير الضعيف والمساكين الذي يتصورون أن المنابع الحياتية الطبيعية الحالية محدودة ولا تتسع لأفراد آخرين في حين أن العلماء اعتقدوا بأن المنابع الحياتية الحالية ـ بغض النظر عما سيُكْشَف منها في المستقبل ـ كافية لتأمين احتياجات أضعاف العدد الحالي لسكان الأرض.

---

(١) الوسائل، ج ١٤، ص ٤.

العزلة الاجتماعية

أثر العزلة والرهبانية في تأخير الفرد والمجتمع

يعتقد الباحثون الاجتماعيون بأن العزلة الاجتماعية بأنواعها، تترك آثار سلبية جداً في روح الفرد وجسمه، وفي المجتمع.

وتم اختبار هذا الموضوع في الأفراد الذين يعيشون بصورة منفردة ومنعزلة، وفي القبائل والشعوب، وبصورة عامة في المجاميع التي تعيش منفصلة عن بعضها لأسباب اجتماعية أو سياسية أو جغرافية خاصة.

يقول (روس) وهو من العلماء الاجتماعيين في كتابه أسس معرفة المجتمع: أنه قام بدراسة آثار العزلة الاجتماعية على مجموعة كبيرة من السجناء الذين كانوا في سجون انفرادية، وأن ١٠٪ منهم ـ بعد أن قضوا سنة واحدة من محكومياتهم ـ كان مصيرهم إما الموت أو الانتحار أو الجنون، والبقية الباقية أصيبوا بالكآبة.

وأضاف قائلاً: «إن مقاومة روحهم الاجتماعية للموت أو الاندثار تبعث على التأثر؛ إذ يمكن أن يؤدي تقديم وردة واحدة أو نبتة صغيرة لأحدهم إلى إطفاء عطش قلبه الظمآن إلى المخالطة الاجتماعية وإحيائه».

وقد قال بخصوص الرهبان الذين يعيشون في الصوامع: «إن للعزلة أثرها السيء في نفوس هؤلاء الأفراد إذ تولد فيهم الخمول

واليأس والوهم وتؤدي إلى إيجاد الاختلال النفسي لديهم».

ويمكن لمس آثار العزلة الاجتماعية في القبائل البدوية المتنقلة، التي تعيش حالة من العزلة الدائمة، بصورة واضحة؛ لأن تخلفهم في المجالات الفكرية والاجتماعية بارز ويتناسب حجمه مع كيفية عزلتهم.

وهكذا الدول المنعزلة عن المجتمع الدولي لأسباب سياسية خاصة فإنها تواجه حالة من التخلف في نواحي مختلفة إذا لم ترتبط بالعالم الخارجي فكرياً عن طريق وسائل الإعلام.

ويتضح السبب الأساسي في هذا الموضوع إذا أخذنا البحوث السابقة بنظر الاعتبار، وكون جميع التطورات مدينة لاتحاد الأفكار وتراكم تجارب وابتكارات الشعوب والأفراد. لذا يجب التسليم بأن العزلة الاجتماعية أكبر آفة تقضي على تكامل المجتمعات ورقي البشرية في جميع المجالات، وتسبب الكثير من الانحرافات أيضاً.



*** الإسلام والرهبانية:**

- رأي الإسلام في هذه المسألة:

لقد استنكر الإسلام العزلة الاجتماعية بكل مظاهرها بما فيها الرهبانية، والحديث الشهير «لا رهبانية في الإسلام» منقول في الكثير من مصادر الحديث، والرهبانية لغة (بضم الراء أو فتحها) من رُهبان ورَهبان، وكلاهما بمعنى واحد من كلمة «رهب» أي الخوف والوحشة والخشية، وتطلق - عرفاً - على المنقطعين والمنفردين عن الناس لأجل الخوف من الله والتفرغ للعبادة.

*** تاريخها:**

كان هذا المسلك رائجاً لدىٰ الهندوس منذ قديم الأزمنة، ثم شاع في الأوساط المسيحية. واعتقد البعض بأن سبب شيوعه عند

المسيحيين أو اليهود هو الانكسارات المتلاحقة التي عانوها من أحد جبابرة سلاطينهم آنداك، فصَمموا على التفرق في الشعاب والانشغال بالعبادة لحين ظهور النبي الموعود لينقذهم من الذل والضياع[1].

* أسبابها النفسية:

من المعلوم أن ردود الفعل النفسية لمختلف الأفراد والأقوام إزاء الانكسارات وحالات الفشل، متباينة، فالبعض يميلون إلى العزلة والتأقلم ويغيرون مسيرة أفكارهم الاجتماعية، والبعض الآخر الأقل عدداً تزيدهم هذه المسائل صلابة ووعياً وينتقلون من النضال السطحي إلى النضال الجذري العقائدي.

والرهبانية في الواقع هي ردود فعل أفراد وشعوب المجموعة الأولىٰ المتخاذلة.

وبعد أن عرفنا الجذور التاريخية والنفسية للرهبانية واتضح لنا بأنها مخالفة للفطرة الإنسانية السليمة، يكفي الحديث التالي في توضيح رأي الإسلام فيها بصورة جيدة:

«توفي ابنٌ لعثمان بن مظعون، رضي الله عنه، فاشتد حزنه عليه حتىٰ اتخذ من داره مسجداً يتعبد فيه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال له: «يا عثمان إن الله تبارك وتعالىٰ لم يكتب علينا الرهبانية إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله»[2].

وسُئل الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام: «هل يصلح للرجل المسلم أن يسيح في الأرض أو يرهب في بيت لا مخرج منه؟ قال لا»[3].

---

(١) راجع قصة الحضارة، تأليف ويل ديورانت.
(٢) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٥، باب الأخلاق.
(٣) بحار الأنوار، ج ١٥، الباب الثاني، ص ٥٣.

والمقصود بالسياحة في هذا الحديث نوع من الرهبانية، وهي أن يسيح الرجل في الأرض بلا زاد، للابتعاد عن المدن والمجتمعات أو للهروب من البيت والأسرة، كما قال المرحوم الطريحي في (مجمع البحرين) بعد نقله لحديث (لا سياحة في الإسلام): «أراد به مفارقة الأمصار وسكن البراري وترك الجمعة والجماعات». وقال في تفسير كلمة (سائحات) الواردة في الآية الخامسة من سورة التحريم: «إنّها بمعنىٰ (صائمات) والسياحة في هذه الآية الصوم، وكان السائح لما كان يسيح ولا زاد له شبه بالصائم»[1].

وعلى أية حال نستنتج من الحديث أعلاه أن الرهبانية ممقوتة في الإسلام بأي شكل كانت، سواء بترك الدنيا والجلوس في بيت مقفل، أم بالسياحة بلا زاد للهروب من البيت أو الأسرة أو المجتمع؛ لأنها تتنافىٰ مع روح القوانين الإسلامية.

وعلاوة على جميع ذلك نجد القرآن الكريم قد ذم رهبانية النصارىٰ وعبر عنها بالبدعة: ﴿ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾[2].

وكل هذه الأدلة التي ذكرناها توضح رأي الإسلام في الرهبانية بصورة كاملة، ولكن تبقىٰ هنا مسألة واحدة وهي:

هل كانت الرهبانية موجودة في باقي الأديان؟

يستفاد من المصادر الإسلامية وجود نوع من الرهبانية في الدين المسيحي تختلف اختلافاً شاسعاً عما هي عليه اليوم.

فالمفهوم من ظاهر الآية: ﴿ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ هو أنه تعالىٰ كان قد فرض عليهم نوعاً من الرهبانية ابتغاء رضوانه عز وجل فما رعوها حق رعايتها، بل ابتدعوا رهبانية أخرىٰ (حسب تعبير القرآن الكريم).

---

(١) وفسرها البعض بمعنىٰ المهاجرات.

(٢) سورة الحديد، الآية ٣٧.

هذا ما يفهم من ظاهر الآية (٢٧) من سورة الحديد (بلا حذف أو تأويل)، لكن بعض المفسرين لم يرتضوا هذا التفسير واعتقدوا بأن الرهبانية بأنواعها يجب أن تكون ممنوعة في كل زمان ومكان دون استثناء، لذا فسروا الآية على وجه من الحذف والتأويل، بشكل آخر، فقال بعضهم بوجود كلمة (ما كتبنا) المحذوفة بعد كلمة عليهم، أي تصير الآية كالتالي: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم، ما كتبنا إلا ابتغاء رضوان الله﴾.

وقال البعض الآخر بوجود عبارة (إنهم ابتدعوها) بعد كلمة إلا أي تصير الآية: ﴿ما كتبناها عليهم إلاّ أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله﴾.

ومن البديهي أن هذه التفسيرات والتأويلات على خلاف المعنىٰ الظاهر للآية الشريفة، ولا تنسجم مع المُستثنىٰ المذكور في الآية من عبارة (ما كتبناها عليهم)؛ لأن ظاهر الاستثناء من نفي الإثبات مما يدل على فرض نوع من الرهبانية عليهم.

والروايات الواردة في تفسير هذه الآية، التي فسرتها بصلاة الليل، تؤيد هذه الحقيقة أيضاً (ذُكرت روايتان في تفسير البرهان في ذيل الآية الشريفة تدلان علىٰ هذا المضمون).

وتنبغي الآن معرفة المقصود من هذه الرهبانية المشروعة:

فمما لا ريب فيه وفقاً للأدلة التاريخية والدينية المعتبرة (الأناجيل نفسها) أن الدين المسيحي الأصيل الذي نزل على عيسىٰ عليه السلام كان خالياً من العزوف عن مطلق الزواج، ومن العزلة الاجتماعية بالابتعاد عن المجتمع وسكنىٰ الأديرة والصوامع كما هو في رهبانية الوقت الحاضر.

وقد ورد في التاريخ أن جماعة من حواريي عيسىٰ عليه السلام قد تزوجوا وخالطوا الناس.

لذا يمكن أن يكون المراد من الرهبانيّة المشروعة معناها اللغوي أي الخوف من الله مع شيء من الزهد وعدم الانخداع بزخارف الدنيا وزينتها والبساطة في الحياة الاجتماعية، كما كان شأن عيسىٰ عليه السلام إلى معنيين هما:

الأول: أنهم لم يراعوا حدود الرهبانية المشروعة ومسخوها ودسّوا فيها البدع وفسروها بمعنىٰ سكنىٰ الأديرة وترك الحياة الدنيوية المألوفة والامتناع عن الزواج بصورة مطلقة.

الثاني: أنهم لم يراعوا حتىٰ الرهبانية التي ابتدعوها، كما سيأتي ذكره فيما بعد، فإنهم بدلاً من الزهد والعفاف وترك اللذائذ الدنيوية مارسوا الزنا في صوامعهم، وعبدوا الدنيا، وزاولوا الترف وشرب الخمور والفجور في بعض تلك المراكز التي أسست باسم الرهبانية.

❀ ❀ ❀

* ابتداع الرهبانية في الأوساط المسيحية:

تشير مصادر التاريخ المسيحية إلى عدم وجود الرهبانية الحالية في القرون المسيحية الأولىٰ، وأنها ظهرت بعد القرن الثالث الميلادي في عهد الإمبراطور الرومي (ديسيوس) عندما حارب المسيحيين، وبعد أن انكسروا أمام هذا الامبراطور وأخرجوا من ديارهم، لجأوا إلى البراري والشعاب[1].

والجدير بالالتفات إليه هنا هو وجود هذا المضمون في الأحاديث النبوية الشريفة، فإنه صلى الله عليه وآله قال لابن مسعود (خلاصة معنىٰ الرواية): هل تعلم يا ابن مسعود من أين نشأت الرهبانية؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال صلى الله عليه وآله: «حكم جماعة من جبابرة السلاطين بعد عيسىٰ عليه السلام، فحاربهم المؤمنون ثلاث مرات، لكنه هُزموا، فتفرقوا

---

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين ـ معنىٰ (رهب).

في الشعاب يتعبدون وينتظرون النبي الذي بشر به عيسىٰ عليه السلام من بعده»[1].

وللمؤرخ المسيحي الشهير «ويل ديورانت» بحث مفصل عن الرهبان في المجلد الحادي والثلاثين من تاريخه.

فهو يعتقد بأن بداية التحاق الراهبات (التاركات للدنيا) بالرهبان كان في القرن الرابع الميلادي، واتسعت الرهبانية يوماً بعد آخر حتىٰ وصلت أوجها في القرن العاشر الميلادي.

وله شرح مفصل لوضع الأديرة وعادات ترك الزواج ومحاولات الرهبان لإحياء الأراضي المتروكة وزرعها، والصناعات اليدوية وأعمال الحياكة وغيرها من مشاغل الراهبات.

وكان الشرط الأساسي في الرهبانية هو ترك الزواج بصورة تامة، يقول «فريد وجدي» في «دائرة المعارف»: ـ اعتقد بعض الرهبان بأن الالتفات إلى الجنس الأنثوي عمل شيطاني لدرجة أنهم امتنعوا عن إدخال إناث الحيوانات إلى منازلهم لئلاً تضعف روحانيتهم!!

ومع هذا فالتاريخ ينقل فضائح كثيرة من الأديرة لدرجة أن «انيوسان الثالث» وصف أحدها (بدار الدعارة)[2]، كما أضحىٰ بعضها مراكز لاجتماع عبدة البطون ومريدي الدنيا والمترفين ليتناولوا فيها أنواع المسكرات المفضلة لديهم!

---

(١) راجع تفسير سورة الحديد في مجمع البيان وج ١٥ من بحار الأنوار، باب النهي عن الرهبانية.

(٢) ويل ديورانت، ج ١٣، ص ٤٤٣.

الفصل الثامن

الوحدات الاجتماعية

* أهم مسألة في الحياة الاجتماعية هي كيف نستطيع أن نبني من مجموع الوحدات الاجتماعية المتفرقة والمتعددة الصغيرة، مجتمعاً موحّداً أقوىٰ وأكبر؟

ولقد كان المجتمع البشري ـ منذ أيامه الأولىٰ ـ يأخذ طابع التعدد والتفرق في وحدات صغيرة وكبيرة.

وتعد العوامل التالية من مسببات هذه الفرقة والتعدد.

١ ـ العِرق (العنصر):

فالأسرة الواحدة تتشعب إلى أسر مختلفة، يشكل مجموعها القوم أو القبيلة التي بدورها تشكل المجتمع الواحد.

وفي الحقيقة فإن الصبغة العنصرية القبلية تمثل الصبغة الاجتماعية للإنسان، ولا تزال القبائل والقوميات أساس الكثير من المجتمعات المتخلفة وقد تكون المسألة أصعب من هذا في بعض الحالات عندما تمتنع بعض القبائل عن التزاوج فيما بينها، لتظل وحدة اجتماعية مغلقة.

٢ ـ البيئة الجغرافية:

اختلطت القبائل المختلفة ببعضها بالقومية والدم شيئاً فشيئاً وشكلت وحدات اجتماعية أكبر تختلف عن نظيراتها في المناطق الجغرافية.

وكانت الحدود الجغرافية طبيعية في بادىء الأمر، كأن يفصل وادٍ عميق أو نهر عظيم أو جبال شامخة بين أمتين، ثم ظهرت الاتفاقيات ففقدت الحدود والموانع الطبيعية أهميتها شيئاً فشيئاً، بيدَ أن الموانع الطبيعية لا تزال تشكل الحدود الجغرافية في الكثير من نقاط العالم كانجلترا وفرنسا، والصين واليابان، إلا أنها ليست كذلك في أغلب دول العالم.

٣ ـ العقيدة (الأيديولوجية):

وأخيراً أصبح الفكر والعقيدة أساساً لتشكيل المجتمعات في الأمم الراقية، فسرعان ما أدرك الإنسان أن العنصر والقبيلة لا يمكنهما الحيلولة دون وحدة بني البشر، ولا ريب في ازدياد العوامل المشتركة بين أبناء الدم الواحد من حيث الجوانب الجسمية والروحية، لكن هذا لا يمنعهم من مخالطة الآخرين.

وكذلك فقد أدرك بسهولة أن اختلاف المناطق الجغرافية (بما فيها الطبيعية والمصطنعة) لا يمكنه أن يكون عاملاً للفرقة، خاصة وأن سهولة وسائط المواصلات والنقل قد أذابت هذا الحاجز وقربت المسافات الجغرافية بصورة كاملة.

لذلك تحولت المجتمعات إلى مجتمعات عقائدية فكرية شيئاً فشيئاً، وحلّت الحدود الفكرية محل الحدود السابقة، وخير مثال على هذا هو انقسام دول العالم الحالية إلى معسكرين شيوعي ومادي (قبل انهيار المعسكر الشيوعي).

ومع أن التصور الذي ساد في البداية كان يحكي عن خلود وأبدية هذا التقسيم، وكانت مسألة عدم تصالح هذين المعسكرين قطعية لا مفر منها، لكنه سرعان ما تبين أنه مصطنع أكثر مما هو واقعي.

فبإزاء عوامل الاختلاف الفكرية والعقائدية الموجودة بين الفئات المختلفة، هناك آلاف العوامل المشتركة التي يمكن أن تكون نواةً

لوحدة البشرية واتحاد أرواح البشر وأجسامهم، الذي يؤدي إلى اشتراكهم في مختلف الأهداف.

وقد تصاعدت نداءات الوحدة بين المجتمعات على الرغم من اختلاف أنظمتها وأفكارها، وهي اليوم تدخل تدريجياً مرحلة التطبيق.

وبالرغم من أن تضارب مصالح الشعوب وعدم وجود النضج الفكري اللازم لتوعيتها وتوجيهها لا يزال يمنع هذه المجتمعات المتفرقة من الاتحاد ببعضها لتشكل مجتمعاً أكبر قائماً على أساس وحدة النوع البشري، إلا أنه من الواضح أن أي واحد من عوامل التفرقة التي ذكرناها لم يكن حقيقياً لا يمكن تخطيه، وهذا الوعي كاف لتمهيد الطريق للمستقبل الأكثر نصوعاً وشروقاً.

وهكذا تثبت لنا إمكانية دمج المجتمعات البشرية في مجتمع واحد.

❀ ❀ ❀

* أقوى الأواصر الاجتماعية:

لإيجاد وحدة اجتماعية كبيرة - بالمقاييس العالمية الكبيرة خاصة نحتاج قبل كل شيء إلى الأمور التالية:

١ - سهولة وسائل الاتصالات:

وهذه المشكلة محلولة نسبياً في عصرنا الحاضر وستتحسن في المستقبل أيضاً بتطور الوسائل المختلفة.

٢ - الوحدة الفكرية:

فبالرغم من قولنا بإمكان بناء المجتمع الموحد على أساس وحدة المصالح الحياتية والإنسانية المشتركة، دون الوحدة الفكرية، لكنه لا شك في أن انسجام أفراد وطبقات مثل هذا المجتمع يمتاز بالضعف

والفتور وسرعة الاضمحلال وسيمتزج بالخَوف والاضطراب والتردد وستكون مجالات التعاون محدودة في مثل هذه الظروف ومشوبة بالشك والحذر وبمثلها لا يمكن بناء المجتمع الكامل الحي السعيد.

بينما لو ارتبط أفراد مجتمع معين بوحدة فكرية عميقة وألّفت بين قلوبهم أواصر متينة لتشكّلَ مجتمع كامل بمعنىٰ الكلمة، مليءٌ بمظاهر التعاون الواسعة الكاملة ومتصف بالانسجام والتفاهم الكامل والدائم.

٣ ـ النضج الفكري والأخلاقي التام:

ونحتاج لتحقيق مثل هذا المجتمع إلىٰ وجود النضج الفكري اللازم الذي يدرك المنافع المترتبة على إدغام جميع المجتمعات البشرية، في مثل هذا المجتمع الموحد الكبير، بنظرة عميقة واحد، وإلى وجود النضج الأخلاقي اللازم لتحمل نقاط الاختلاف الحتمية لأجل الاتفاق على النقاط المشتركة وفهمها وترويض النفوس على قبولها.

ومن البديهي أن الاقتناع بأن تعاون البشرية بأسرها ينفع الجميع، ليس عسيراً، بل العسير هو فهم نقاط الاختلاف وهضمها.

أي ليس من الصعب إدراك كون تقليل مشاكل الناس وتسهيل حلها يكمن في اجتماعهم في مجتمع واحد.

نلاحظ دائماً أن تبدد الجزء الأكبر من الطاقات الإنسانية والاقتصادية يكمن وراء الفرقة والانفصال، بل من المتوقع أن يذهب النصف الأكبر من مجموع الطاقات والإمكانات ضحية ذلك.

ولعل أكثر من نصف الطاقات البشرية الفعالة الموجودة في عصرنا الحاضر، الذي يشهد تنافساً شديداً بين مختلف القوىٰ، يستهلك في المجالات التالية: الجيش والقوات الاحتياطية ومجاميع الاستطلاع والتجسس ومؤسساتها المرتبطة بها وحراسة الحدود والجمارك ومكافحة التهريب والصناعات الحربية وفروعها، ومن الواضح عدم فائدة هذه

النفقات إذا لم تقتضها الضرورة، وليس لها أي أثر اجتماعي إيجابي.

وإن نصف الميزانيات تخصّص لهذه المجالات (أي الدفاعية والحربية والتجسسية وغيرها).

هذا في حالة عدم حدوث حرب عالمية، وإلاّ لكانت الميزانيات المخصصة لإصلاح آثار الحروب المحلية على العصيد المحلي والحروب العالمية على الصعيد العالمي، مذهلة للعقول.

وهذه جميعاً تمثل طاقات بشرية واقتصادية تذهب سدىً، وسببها الوحيد هو انفصال المجتمعات البشرية عن بعضها، كما لو خصصت مؤسستان تجاريتان نصف ثرواتهما ووقتهما لتدمير بعضهما، فإن النتيجة لا ينجم عنها سوى انهيار الإثنتين معاً.

لذلك لو تحققت الوحدة الكاملة بين جميع المجتمعات البشرية لتضاعفت نتائج فعالياتهم في جميع مجالات الحياة إلى ضعفين. وهذه مسألة واضحة للجميع.

أما في الجهات الأخلاقية، فلا ريب في وجود الاختلاف بين الناس؛ لاختلاف أذواقهم ونوعية تفكيرهم وميلهم إلى النشاط أو الخمول في الأعمال، أو التعادل في الميل إلى العاطفة أو التعقل، والتفاوت في الانقياد إلى العاطفة أو عدمه، وفي الاهتمام بالمظاهر أو عدمه، وفي مقدار الرغبة بالتخصصات المختلفة كالعلمية والاقتصادية وغيرها.

وصحيح أنه يمكن إجراء تغييرات وتعديلات في إيمان وعواطف وأفكار ورغبات مختلف الأفراد عن طريق التمرين والتجربة والتربية المستمرة لكن هذه الاختلافات ليست قابلة للاضمحلال تماماً.

فكما أنه لا يوجد شخصان في العالم متشابهان جسمياً بصورة تامة، فكذلك لا يمكن العثور على شخصين متشابهين في جميع الجوانب المعنوية والروحية والفكرية والغريزية المختلفة، ومن المسلم

به أنّ اختلاف الأرواح والغرائز والأفكار أوسع مما هو عليه في الأجسام، لأن تركيب الإنسان الروحي أعقد وأوسع من تركيبه الجسمي.

فالذين يريدون العيش بتعاون وسلام في مجتمع عالمي موحد كبير، ينبغي لهم الوصول إلى حدٍّ من النضج الأخلاقي يمكنهم من هضم وتحمل نقاط اختلاف الآخرين عن طريق إدراك هذه الحقائق المتعلقة باختلاف تركيب الإنسان الروحي والفكري والعاطفي والأخلاقي وأن يصيروا أفراداً يستطيعون احترام رغبات الآخرين عند الاختلاف معهم في الرأي حول المسائل الثانوية، وأن لا يتوقعوا من الآخرين موافقتهم في جميع هذه الحالات، وأن لا يفرضوا عليهم رغباتهم عن طريق إلباس المسائل الفرعية ثوب المسائل المصيرية.

وجميع صفات العضو والأعضاء وسعة الصدر والنظرة الشاملة والتحمل والدماثة والحلم، لازمة وضرورية جداً من الناحية الأخلاقية لهضم نقاط الاختلاف هذه.

ولا يستطيع حتىٰ مجرد شخصين معيّنين أن يتعاملا مع بعضهما مدة طويلة إلاّ بإدراك هذه الحقيقة والاستعداد لتقبّلها.

ومن البديهي أن هذه الاستعدادات الأخلاقية اللازمة لهضم نقاط الاختلاف المذكورة، لا تأتي عن طريق اللسان، بل هي أمور لا تتحقق إلاّ عن طريق التهذيب والتربية الصحيحة التي تخلق النضج الأخلاقي المطلوب.



* الإسلام والمجتمع العالمي الموحد:

لقد مهد الإسلام الطريق لإقامة مجتمع عالمي موحد من عدة جهات لأنه:

أولاً: مع أن الإسلام قد وُلد في مجتمع طائفي يعير الأولوية للطائفة والقبيلة قبل كل شيء، وتتحكم العنصرية بجميع مقدراته باقتدار تام، وحتىٰ مدنه لم تكن مدناً بمعنىٰ الكلمة، بل كانت أجزاء مبعثرة ومنفصلة عن بعضها بسبب الاختلافات القبلية والطائفية، لكنه (أي الإسلام) حذف المسائل العنصرية من قائمة المسائل الاجتماعية بصورة كلية وألغىٰ أهميتها تماماً.

ولقد حارب الإسلام مبادىء المجتمع القبلي (كوحدة الدم، ووحدة الجد الأصلي للقبيلة)، ولفت الأنظار إلى مبادىء أسمى وقال: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ﴾.

ووضع الأخوة الإنسانية مكان الأخوة القبلية والدم الإنساني بدل الدم القبلي، وأحياناً أفهمهم بأسلوب آخر أنه على الرغم من لزوم حفظ النوع والتناسب مع أشرف الطوائف والقبائل والآباء، لكنه ينبغي أن لا يكون ذلك بدافع التفاخر بالأنساب، بل للتعارف عن طريق هذه الحلقة الاجتماعية الخاصة.

ومع أن حفظ حقوق أفراد المجتمعات يستلزم تعارفهم، ولا سبيل إليه أفضل وأصح من انتسابهم إلى أشرف الشعوب والقبائل، لكنه ينبغي أن يكون للتعارف لا للتفاخر: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾.

وأفهمهم أيضاً أن كرامة وقيمة الفرد نابعة من سجاياه الروحية وملكاته النفسانية (التقوىٰ والعمل الصالح) وهي لا تنتقل بالوراثة، بعكس الصفات الوراثية كالجمال، فالجميل قد اجتمعت فيه صفات الجمال بصورة لا إرادية لذا لا يمكن أن تكون مقياساً لشخصيته وكرامته: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وهكذا وجه الإسلام ضربة ماحقة لأُسُس التمييز العنصري.

ثانياً: أوضح الإسلام تفاهة الحدود الجغرافية (الطبيعية والمصطنعة)، عن طريق عدم الاهتمام بها وتصدير الدعوة الإسلامية إلى كافة دول العالم.

ويمكن استنباط هذا المنطق الإسلامي من خلال التعبيرات الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم، ومنها:

أ ـ النداءات القرآنية (عدا ما يخص المؤمنين) وردت بصيغة التعميم لتشمل جميع الأمم العالمية كقوله تعالىٰ: ﴿يا أيها الناس﴾ و: ﴿يا عبادي﴾ و: ﴿يا بني آدم﴾ و: ﴿يا أيها الإنسان﴾.

فجميع هذه النداءات شمولية تشمل جميع العالم من أي قوم أو أمة أو دولة، وليس هناك أدنىٰ أثر للتمييز فيها.

ب ـ اعتبر القرآن كل ما على الأرض دولة الله الواسعة، إذ قال تعالىٰ: ﴿يا عباد الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإيّايَ فاعبدون﴾ (العنكبوت ـ الآية ٥٦) وأوصىٰ في الآية التالية بُالتفكر: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (الآية ٣٦ من سورة النحل)، ودعاهم إلى الصلاح والابتعاد عن الفساد: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ (الأعراف، الآية ٥٦). وفي مكان آخر وصف ما على الأرض بأنه ميراث للصالحين: ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء ـ الآية ١٠٦).

ج ـ أوصىٰ القرآن الكريم المسلمين بعدم التقيّد بمكان معين في أداء فرائضهم الإلهية، وحثهم على الهجرة في حالة عدم تمكنهم من أدائها في ذلك المكان، ووبخ المتقاعسين عن الهجرة، إذ قال: ﴿قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ (النساء ـ الآية ١٩٧).

د ـ لم يدعُ القرآن الكريم في جميع الآيات المتعلقة بالأحكام والمعارف والأخلاق الاجتماعية، إلى الوحدات الاجتماعية المنفصلة عن بعضها أبداً، مما يدل على تبنيه مشروع المجتمع العالمي الموحّد. وفي الحقيقة لا يمكن أن يكون المسلك القائم على أساس المبادىء الإنسانية والحقوق البشرية خلاف ذلك.

* ملاحظة مهمة:

يحتوي الفقه الإسلامي باباً خاصاً في الجهاد تحت عنوان المرابطة (أي التهيُّؤ لحفظ وحراسة الحدود الإسلامية من الهجوم الاحتمالي للعدد وقد وضعت أحكام خاصة في هذا الباب)[1].

وقد يتصور البعض أن هذا الموضوع يشير إلى ميل الإسلام إلى الحدود الجغرافية، لكن الواضح بصورة جلية أن هذا ضروري في حالة تعرض الإسلام لتهديد خارجي فقط، وسينتفي تلقائياً في حالة انتشار الدعوة الإسلامية في العالم ـ أو انتصار النهج الإسلامي في دعوته ـ، وعلاوة على ذلك فإن حدود الدولة الإسلامية عقدية فكرية لا جغرافية مصطنعة، وبتعبير آخر: إن الدولة الإسلامية خالية من كل أنواع الحدود أو التقسيمات الجغرافية ولا يفصلها عن غيرها من الخارج سوى الحدود الفكرية والعقدية.

ثالثاً: حاول الإسلام، من خلال معارفه وأحكامه، إيجاد نقطة الوحدة الفكرية بين جميع بني البشر.

ويجب الالتفات إلى أن الوحدة الفكرية والعقدية التي أسسها الإسلام، على خلاف العلاقات الفكرية الموجودة في الأحزاب السياسية وأمثالها التي ظهرت في العالم مؤخراً، لا تختص بطبقة أو فئة أو شعب معين، بل هي للناس كافة.

وهذا يُعدّ امتيازاً عظيماً للفكر الإسلامي يعبّر عن خلوّه التام من كل الصبغات الجغرافية والطائفية.

لكن جميع الأحزاب والمنظمات السياسية العالمية والمذاهب الفلسفية التابعة لها، على الرغم من تظاهرها بتأسيس أعمالها على أساس الوحدة الفكرية، تشترك في هذا العيب الكبير الذي يفصح عن

---

(١) راجع كتاب جواهر الكلام، أوائل كتاب الجهاد.

خلوها من النظرة الشمولية والعالمية منذ البداية أو فقدانها لها فيما بعد.

فمثلاً نلاحظ أن «الحركة النازية» أو «الحركة الصهيونية العالمية» الشريرة مع تظاهرها بالجانب الفكري، لكنها في الواقع لم تأتِ إلا لحفظ مصالح فئة أو جماعة خاصة من الناس.

فالعنصر الألماني في الحزب النازي، والعنصر اليهودي في الحركة الصهيونية ومصالحهم الخاصة تشكل أساس الحركتين المذكورتين أعلاه. والأحزاب الشيوعية العالمية مع أنها تنادي بالمجتمع العالمي الموحَّد، لكنها لا تكتم صبغها العنصرية ودفاعها عن مصالح شعب معين، لذا نرىٰ أن الصهيونية قد ظهرت في كل دولة بصبغة معينة.

وعليه فمن الطبيعي أن تنحصر هذه الحركات بفئة معينة من الناس، رغم أنهم ينادون جميعاً بلزوم رفع الطبقية والحدود من المجتمع وإيجاد مجتمع عالمي مجرد من الطبقات.

ولكن الوحدة الفكرية والعقائدية التي خطط لها الإسلام فهي خالية من أية صبغة خصوصية، حتىٰ أنها لا تخص المسلمين، بل تمتد لتشمل معتنقي المذاهب الأخرىٰ أيضاً، لذلك فقد وضع الإسلام نهجاً متكاملاً لحفظ حقوق الأقليات الدينية التي تعيش في الدول الإسلامية والدفاع عن حقوقها، ويتضح أفقه الوسيع بالمطالعة الكافية في المصادر الإسلامية.

* الطريق إلى إيجاد الوحدة الفكرية:

نتطرق الآن إلى متابعة جزء من المعارف والتعليمات الإسلامية التي يمكن أن تساعد على تحقيق هذا الهدف العظيم (إيجاد الوحدة الفكرية بين بني البشر):

١ ـ مبدأ التوحيد يشكل أساس جميع المعارف الإسلامية، ولقد

حطم الإسلام الأرباب المتفرقين، الذين هم علامة لتشتت الأفكار والآراء، ويعتبرون عاملاً مؤثراً في إيجاد التفرقة الاجتماعية، ولقّن معتنقيه أن الذات الإلهية المقدسة لا تعرف الفرقة والتعدد، فذاته بسيطة وصفاته عين ذاته.

وكما هو علوم فإن أحد عوامل التفرقة بين الناس في العصور المنصرمة هو مسألة الاعتقاد بآلهة متعددة، فكان لكل قوم أو طائفة أو شعب أو مدينة إله أو آلهة تنتصر بمجرد انتصار القوم وتغلبهم على أعدائهم، ويُعترف بها رسمياً، وتتعرض للنسيان والاندثار بمجرد انهزامهم.

كما قال (البرمالة) في حديثه حول العقائد الدينية للكلدانيين:

كانت مدن (كلدة) في البداية كمصر، لكلّ منها إلهها الخاص، وبعد تأسيس الدويلات الكبيرة انتشرت عبادة آلهة المدن المتعددة، وصار إله العاصمة رب الأرباب! ففي فتوحات حمورابي وبعد أن صارت بابل عاصمة كلدة آنذاك، صار إلهها مردوخ رب أرباب كلدة؛ ولأن مدينة آشور كانت عاصمة الدولة الأشورية، أصبح إلهها رب أرباب الأشوريين فقط[١].

ولم يكن المصريون يعبدون عدة آلهة مشتركة، بل كانت لكل مدينة إله على حدة، ومع ذلك فقد راجت عبادة بعض الآلهة في جميع أنحاء مصر، فلو ارتفعت مكانة مدينة معينة وسطع نجمها، سطع نجم آلهتها[٢].

ولقد ظهر النموذج الكامل للأرباب المتفرقين في مسقط رأس الإسلام (الحجاز) وخصوصاً في مكة، فكانت هذه الآلهة مصدراً لجميع أنواع الفرقة والاختلافات الفكرية والاجتماعية، ووضوح ذلك لا يحتاج إلى دليل.

---

(١) البرمالة ـ تاريخ الأمم الشرقية، ج ١ ص ٨١.

(٢) البرمالة ـ ص ٤١.

وجاء الإسلام لينهي هذا الوضع المأساوي بتعليماته ومعارفه النيرة فعلم المسلمين شعار التوحيد «لا إله إلا الله».

قال تعالىٰ: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾[1]

وقال أيضاً: ﴿إن كُلُّ من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾[2]

ولقد نشر الإسلام مظاهر التوحيد في جميع الكون من خلال تعليماته ونظر إلى العالم كوحدة واحدة، خالقها واحد: ﴿ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترىٰ من فطور﴾[3]، وصرح بوحدة مصدر الحياة: ﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيء حي﴾[4]، وقال بشأن بداية خلق السماوات والأرض: ﴿أو لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[5].

ومع أن الرتق المذكور في الآية أعلاه كان قد فسر بعدم نزول المطر والفتق بمعنىٰ هطول المطر، وهذا يتناسب مع عبارة: ﴿أو لم يرَ الذين كفروا﴾ إلا أن الواضح هو أن هذين المعنيين لكلمتي (الرتق) و(الفتق) مجازيان، وعليه فما قلناه هو المعنىٰ الظاهري للآية، والمراد من حقيقة الرؤية هي الرؤية بالتفكر والتعقل، والتي تدرك بالتدقيق والتعمق في نظام الكون، والآيات التي تلتها من هذا القبيل أيضاً: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم﴾.

وبذلك حطم الإسلام قاعدة أخرى من قواعد الشرك الأساسية، وقواعد الاعتقاد بتعدد الآلهة؛ لأن الاعتقاد المذكر ينشأ على الأغلب من الاعتقاد باستقلال الكائنات في ذاتها عن بعضها، وبالتالي الاعتقاد بوجود خالق مدبّر مستقل لكل واحدة على حدة.

---

(١) الزخرف ـ الآية ٨٤.

(٢) مريم ـ الآية ٩٣.

(٣) الملك ـ الآية ٣.

(٤) الأنبياء ـ الآية ٣٠.

(٥) الملك ـ الآية ٣٠.

وقد جاء في التعليمات السماوية أن رب آدم وخالق هذا الكون غير منفصل عن مخلوقاته، أي في الوقت الذي يختلف عنهم فإنه لا يفارقهم أيضاً. قال تعالىٰ: ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ (الواقعة، الآية ٨٥) وقال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ (سورة ق ـ الآية ٣). وقال الإمام علي عليه السلام: «مع كل شيء لا بمفارقة، وغير كل شيء لا بمزايلة»[١].

❀ ❀ ❀

روح الوحدة في التعاليم الإسلامية:

لم تظهر روح الوحدة في التعاليم الإسلامية من خلال اعتبار مبدأ التوحيد أساس جميع العقائد الإسلامية فقط، بل تعدت إلى مسألة رسائل الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية، فنظر إليها الإسلام نظرة متساوية من حيث المبادىء ومختلفة في مراحلها التكاملية فقط.

وهذه الروحية ملموسة حتىٰ في الأحكام والقوانين والضوابط العلمية الإسلامية إذ يشترط فيها تمام الإنسانية (أي البلوغ والعقل) فقط.

وتشترك جميع العبادات الإسلامية في الدعوة إلى التفكر والهداية: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ (طه ـ الآية ١٤)، ولها آثار تبعث على الانضباط والسيطرة على الأهواء النفسية الجامحة وتربية الإنسان.

وجميع العبادات الإسلامية تؤدّىٰ بلغة واحدة مما يدل على وحدتها أيضاً، لا من منطلق كونها تخص أمة معينة من الناس، بل لأنها لغة الوحي (ولعل السبب في انتخاب اللغة العربية دون باقي اللغات لتصير لغة الوحي هو اتصافها بقلة التكلف، وسعة الكلمات والمشتقات والتركيبات اللغوية والنغمة الخاصة).

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة الأولىٰ.

وتظهر روح الوحدة في التعاليم الإسلامية من خلال العبادات الجماعية بصورة خاصة، ولا سيما الحج الذي تتجلىٰ فيه أسمى مظاهر روح الوحدة. فعندما يجتمع حشد من الأفراد المتباينين عن بعضهم بالمكان والأجساد والأرواح ليتوحدوا في إطار العقيدة، والمكان، والشعارات التي يرددونها، يصير لمظهرهم عظمة خاصة كعظمة وحدة نظام الكون، وهذه الصبغة، أي البناء والتكوين، هي في الحقيقة صبغة الإسلام، لذلك فهي تتناغم معه.

ولصفوف صلاة الجماعة في الإسلام مظهر، لو نظر إليه الناظر من خارج الكرة الأرضية ـ على سبيل الفرض ـ لوجده على شكل حلقات متداخلة منتظمة حول نقطة مركزية واحدة وهي الكعبة، مما يدل على الوحدة الكاملة.

واستخدم الإسلام المقاييس الطبيعية في تعبيراته عن بعض الموضوعات، التي يتساوىٰ الجميع فيها، وليس لها صبغة قومية خاصة كالشبر وأخمص القدم.

والأشهر والسنوات القمرية الهجرية قائمة على أساس دورات القمر والشمس أو على الأصح دوران الأرض حول قرص الشمس، ومتساوية لدى الجميع، وامتيازها على الأشهر الشمسية، القائمة على أساس حركة الشمس في الأبراج، هو وضوحها وعدم الحاجة في معرفتها إلى التخصص الفني. ولا تتفاوت إلاّ من ناحية اختلاف الأفق، الذي هو من الخصائص الطبيعية لمناطق الكرة الأرضية؛ بعكس الأشهر المتعارفة عند بعض المبادىء المزيفة، القائمة على أساس العدد (١٩)، فقد قرروا عدد أشهر السنة تسعة عشر شهراً، وعدد أيام كل شهر منها تسعة عشر يوماً أيضاً، وأوجدوا مركباً، لا هو منسجم مع المقاييس الطبيعية، ولا هو ممكن الاستعمال دون عمليات حسابية.

وهكذا نرىٰ أن روح الوحدة متمثلة حتىٰ في الأعداد والمقاييس الإسلامية.

* الشرط الأوّل: النضج الأخلاقي:

وهو المبدأ الذي لا تعرف الدنيا في غيابه الطمأنينة والاستقرار.

فكما قلنا سابقاً نحن بحاجة، علاوة على الوحدة والنضج الفكريين، إلى النضج الأخلاقي أيضاً؛ لأجل بناء مجتمع حقيقي، بمستوىً عالمي واسع يضم العالم كله. وبدونه لا يستطيع الناس أن يتحملوا وجود بعضهم، وأن يحلوا عقد احتكاك المشارب المختلفة وتباين الآراء بأسلوب مقبول لائق.

وحاجة هذا القسم إلى مراعاة الجوانب الأخلاقية وتوجيهات الأنبياء والمرسلين أوضح من باقي الأقسام، لأن الإيمان الذي لا يستند على العمل وسنن الأنبياء ضعيف، ولا يتعدىٰ سلسلة من الكمالات غير الضرورية والوصايا الزائدة.

ولنتطرق الآن إلى المناهج التي وضعها الإسلام لتنمية النضج الأخلاقي عند الأفراد وإعدادهم لخوض غمار الحياة الاجتماعية (ويجب الانتباه بالطبع إلى أن ما نذكره أدناه هو جزء من تعليمات واسعة، والتوفُّر عليها هنا خارج عن حدود الموضوع):

١ ـ اختلاف الناس من حيث الخلقة الروحية والجسمية والعاطفية والمعنوية كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «لو علم الناس كيف خلق الله الخلق لم يلم أحدٌ أحداً!».

وعنه ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» ويشير هذا الحديث إلى اختلاف الخلقة بصورة إجمالية.

فمجرد الالتفات إلى اختلاف بنية الأفراد الروحية والعاطفية والتربوية واختلاف مقدار معلوماتهم وخبراتهم بصورة تامة سوف يؤدي إلى حل الكثير من مشاكل المعاشرة والاختلافات والمشاحنات الاجتماعية.

فكثيراً ما ينزعج الآباء والأمهات من بعض تصرفات أبنائهم

ككسر إناء معين أو توسيخ ثيابهم، وقد يفرضون عليهم عقوبات شديدة على عمل صغير ويلومونهم كثيراً.

وفي حين أننا لو حققنا في الموضوع بدقة لوجدناه لا يحتاج إلى هذا القدر من الانفعال والملامة والتوبيخ.

ذلك لأن الطفل يجهل نوعية الأواني القابلة للكسر، ويجهل سبل المحافظة عليها ليقلل احتمال سقوطها وانكسارها إلى أدنىٰ حد ولو افترضنا أنه يعرف جميع هذه المسائل، لوجدناه لا يزال يفتقر إلى التجربة العلمية الكافية حول الموضوع، ولو افترضنا وجودها، لوجدنا أن قدرته الجسمية ضئيلة.

ولا نعجب إذا اكتشفنا أن معرفتنا التي تفوق معرفة الطفل في المحافظة على هذه الأواني نابعة من تجارب وخبرات مرحلة الطفولة الوفيرة. فمرحلة الطفولة مليئة بحالات الاختبار واقتباس المعلومات التي تخص المحيط الذي يعيش فيه الإنسان ولا يعرف عنه شيئاً.

ولو افترضنا أنفسنا مكان ذلك الطفل، بتلك المعلومات المتواضعة الضيقة والاستعدادات الأضيق، لاستَسغنا الكثير من أعماله التي نعتبرها ذنباً ونحاسبه عليها.

ونستطيع تطبيق هذه المعايير حتىٰ على الأفراد الكبار أيضاً، فبعض تصرفات صديقي قد تكون بنظري غير لائقة، وقد تدفعني نفسياً لقطع الصلة به، ولكن لو أخذت طبيعة محيطه التربوي بنظر الاعتبار، وضممت إليه بنيته الروحية، وأضفت إليه سلسلة أفكاره لعملت عمله لو كنت مكانه.

فمثلاً: جاري الذي يتكلم بصوت عالٍ ويزعجني، فلو أخذت معلوماته وتركيب حنجرته وأعصابه ومقدار حساسية طبلة أذنيه، وتربيته بنظر الاعتبار لوجدت، على الرغم من تقصيره في الموضوع، أن التقصير ليس بذلك الحجم الذي كنت أتصوره.

ولا يلتبس الأمر، فنحن لا نقصد من وراء هذا الكلام أن نصحح جميع تصرفات الناس وننزههم عن التقصير، ونصبح كالجبريين لنلقي اللوم في جميع الحوادث على العلل الروحية والجسيمة والخارجية وفي الوقت نفسه لا نبغي من كلامنا إنكار أهمية التربية وضرورتها لندع الأفراد وشأنهم ليفعلوا ما شاؤوا، بل المقصود بذلك الكلام أننا لو انتبهنا إلى مثل هذه الحقائق لرفعنا من مستوىٰ استعداداتنا لحل الخلافات ورفع الاعتراضات عن بعضنا، ولتحمل بعضنا البعض بسهولة، والسر في نفورنا من الآخرين لأدنىٰ اختلاف في الرأي هو عدم هضمنا لهذه المسائل والفروقات.

❀ ❀ ❀

* الشرط الثاني: العفو والصفح:

قلما يُصان أحد من الخطأ والاشتباه، وأحياناً التعمُّد، في تضييع حقوق الآخرين، وإذا كان من المقرر أن يعمل الجميع بموجب مبدأ الانتقام لتطورت الخلافات الاجتماعية وتصاعدت يوماً بعد آخر، ومردُّ ذلك إلى: أولاً ـ عدم إمكانية السيطرة على الأعمال الانتقامية؛ فغالباً ما تتفاقم وتسير نحو الأسوأ، ثانياً ـ على فرض إمكانية السيطرة عليها وتحجيمها فإنه لا يمكن المساواة أبداً بين حجم الجناية في نظر الجاني من جهة، وفي نظر المجني عليه من جهة أخرىٰ وعليه فلو أراد الأخير أن يراعي مبدأ العدالة في عمله الانتقامي ويساوي في كمية وكيفية الانتقام لما تمكن من ذلك أيضاً (في نظره) مما يجر إلى التفكير بانتقام جديد، يؤدي إلى استمرار النزاع.

وهذا أحد أسباب عدم انطفاء نيران الفتنة والحرب والنزاع بين الكثير من الطوائف والأقوام السابقة والحالية، فكل طرف يرد على خصمه بانتقام أقوىٰ مما يؤدي إلى استمرار النزاع.

والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يقطع سلسلة الانتقامات ويطفىء نار الفتنة هو روح العفو والصفح.

والجدير بالذكر أن أصحاب العفو والصفح الذين يقطعون سلسلة النزاع لا يخدمون خصمهم فقط بل ـ علاوة على تحصيل فضيلة أخلاقية سامية ـ يتخلصون من الأضرار المستقبلية التي كانت تنتظرهم في طريق استمرار النزاع.

ولو دققنا وحققنا جيداً في الموضوع، لوجدنا أن الانتقام ليس له أي ثمرة عقلائية للمنتقم، ولا يتعدىٰ كونه مهدئاً مؤقتاً أو نصراً وهمياً مصحوباً ـ دائماً ـ بمرارة انتقام الطرف المقابل، بينما نجد أن سكينة الصفح أعمق من ذلك بكثير، والنصر الروحي والاجتماعي الحاصل منه حقيقي وليس وهمياً.

ولقد أشارت المصادر الإسلامية إلى هذا الموضوع ورغّبت فيه بعبارات لطيفة واعتبرته من أهم الواجبات الإسلامية ومنها:

١ ـ ﴿وليَعْفوا وليَصْفَحوا، أَلا تُحبّونَ أنْ يغفَر الله لَكُم﴾ (النور ـ الآية ٣٣).

أشارت الآية إلى أن الطرفين مذنبان على أية حال، فكما تحبون أن يغفر الله لكم، فاعفوا واصفحوا عن حقكم أنتم أيضاً، في الخلافات التي تحصل بينكم وبين إخوانكم.

والجدير بالانتباه هو أن كلمتي (العفو) و(الصفح) المذكورتين في الآية أعلاه هما بمعنىً لغوي واحد (كما ذكر الراغب في مفرداته).

لكن الصفح أسمىٰ من العفو؛ لأنه عبارة عن العفو المجرد من الملامة والتوبيخ والهجران، ولعلّ التفاوت ناشيء من أن الصفح في الأصل معناه (أعراضٌ بصفحة الوجه) أي تناسي الموضوع تماماً.

وغير خاف أن من يمتنع عن الانتقام العادي المتعارف عليه، لكنه يذكّر المقابل بذنبه عن طريق اللسان أو الهجران، فإنه لم يبلغ حقيقة العفو التي تحصل بالتناسي والتغاضي الكامل عن الموضوع.

٢ ـ ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ (البقرة، الآية ٢١٩).

بالرغم من أن المشهور بين المفسرين عن معنىٰ العفو المذكور في الآية أعلاه هو ما زاد عن مؤونة الفرد وعياله، أو ما زاد عن قوت سنته، وكون الآية في سياق آيات الإنفاق يؤيد هذا المعنىٰ أيضاً، إلاّ أنه لا يُستَبعَدُ أبداً أن يكون المراد من العفو المذكور في هذه الآية هو نفس معناه المشهور والمعروف الذي يستعمل في المواضع الأخرىٰ، والسرُّ في العدول عن الإجابة عن سؤال الإنفاق المالي إلى الإنفاق الأخلاقي (العفو) هو كون الإنفاق لا ينحصر بالمال فقط ليُسأل عنه بكثرة وإلحاح، بل الأهم منه هو العفو عما للفرد في ذمة الآخرين، وبديهي أن يكون هذا العفو (الإنفاق الأخلاقي) أصعب من الإنفاق المادي لدىٰ عامة الناس؛ لأنه ضد غريزة الانتقام، في حين أنه أفضل من الانتقام بكثير في توطيد دعائم النظام والعدالة الاجتماعية. وهذا النوع من العدول عن جواب سؤال معين إلى جواب سؤال آخر موجود بصورة متواترة في القرآن الكريم، وهو من مميزاته فإنه على خلاف ما هو متعارف، لا يتقيد في إجاباته بالأسئلة المطروحة، بل يلاحظ الحاجة الواقعية للسائل، ويجيب طبقاً لها، كما أجاب عن سبب تغير شكل الهلال في أيام الشهر المختلفة، فاستعاظ عنه بتعديد فوائده ونتائجه: ﴿يسألونك عن الأهلة، قل هي مواقيت للناس والحج﴾ (البقرة ـ الآية ١٨٨).

٣ ـ عن رسول الله ﷺ: «ثلاث والذي نفسي بيده لو كنت حلاّفاً لحلفت عليهن: ما نقص مالٌ من صدقة فتصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده بها عزا يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»[١].

٤ ـ وعنه ﷺ: «عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلاّ عزاً فتعافوا يعزكم الله»[٢].

---

(١) إحياء العلوم، الغزالي، ج ٣، ص ١٨٢، عن عدة من أصحاب الصحاح الستة.

(٢) الوافي، ج ١، ص ٨٣، أبواب الإيمان.

٥ ـ عن الباقر عليه السلام: «الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة»[(١)].

٦ ـ عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «ما التقت فئتان قط إلاّ نصر أعظمهما عفواً»[(٢)].

ونلاحظ من الأحاديث أعلاه، أن النصر أحد النتائج المباشرة للعفو.

ولعل السر في ذلك هو كون الانتقام عند الاقتدار الطبيعي ناشىء من غريزة حيوانية يمكن ملاحظتها في الحيوانات أيضاً، لكن العفو والصفح من علائم الشخصية الإنسانية، ويعبر عن نوع من السيطرة على النفس ونخوة وعظمة الروح القادرة على إخماد نار الغضب والانتقام المحرقة، لذا فالعفو والصفح ميزات لمكانة وشخصية الفرد، وازدياد يزيده عزاً وفخراً.

علاوة على ذلك فإن الانتقام لم يتمكن أبداً من كسب ودّ وعواطف الآخرين لصالح المنتقمين، بينما نرى ما للعفو والصفح من أثر بليغ في كسب الرأي العام وإثارة العواطف والمشاعر لجانب العافي مما يُعَدّ بذاته أحد العوامل المؤثرة في تحقيق النصر.

*** الشرط الثالث: مقابلة الإساءة بالإحسان:**

لقد أشارت الأحاديث والآيات الشريفة إلى مرحلة أهم وأسمى من العفو والصفح، وهي مقابلة الإساءة بالإحسان.

ولا ريب في كون هذا العمل من أسمى تجليات الروح الإنسانية، ويحتاج إلى تربية أخلاقية، ويخلق شفافية روحية خاصة، وله أثر بليغ في ترقيق القلوب المليئة بالعداوة والبغضاء.

---

(١) و(٢) ـ الوافي ج ١، ص ٨٣ ـ أبواب الإيمان.

وهو أيضاً أفضل درس يمكن تلقينه للمعتدين والمجرمين، ثم هو القصاص الوحيد الذي لا يخلق أي ردّ فعل سلبي في نفوس المجرمين ولا يدعوهم إلى اعتداء جديد.

وهذه النقاط بأجمعها هي التي توّجت هذه الفضيلة وجعلتها من أهم الطرق لإنهاء الخلافات والعداوات.

قال تعالىٰ في محكم كتابه الكريم: ﴿ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم، وما يُلقّاها إلاّ الذين صبروا، وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (سورة فُصلت ـ الآية ٣٤ ـ ٣٥).

والأثر العجيب لخصلة (الدفع بالتي هي أحسن) في إنهاء الخلافات ينشأ في الواقع من كون المجرمين يعيشون حالة انتظار دائم لتلقي الردّ والانتقام من الخصم، وقد يقرون باستحقاقهم مثل هذا الانتقام، ولكن لو قوبلت إساءتهم بالإحسان، بعكس انتظارهم واستحقاقهم، لتحركت القوىٰ الكامنة في ضمائرهم، وولدت حاجزاً باطنياً أمام نفوسهم، سيعتبره وجدانهم دليلاً علىٰ طهارة الطرف المقابل من جهة، وعلى تلوثهم بالذنوب من جهة أخرىٰ، وسيضغط عليهم بشدة لتغيير أسلوبهم، وهذا الضغط بدرجة من الشدة بنحو قلما يتمكن أحد من التغاضي عنه ومواصلة أسلوبه العدائي، ولذلك نجد أن أغلب الأعداء يغيرون أسلوبهم بهذه الطريقة ويرضخون للانعطاف والتسوية.

وقد ذكرت الأخبار، الواردة عن الرسول الأكرمﷺ والأئمة المعصومينعليهم السلام، هذه الصفة المتميزة بوصفها أفضل وأسمىٰ الصفات الإنسانية:

١ ـ قال رسول الله ﷺ في خطبة: «ألا أُخبركم بخير أخلاق الدنيا والآخرة: العفو عمن ظلمك وتصل من قطعك والإحسان إلى من أساء إليك وإعطاء من حرمك»[1].

---

(١) الوافي، ج ١، ص ٨٣ أبواب جنود الإيمان.

ويلاحظ أن ثلاثاً من الجمل الأربع المذكورة في الحديث الآنف الذكر تتعلق بدفع السيئة بالحسنة، وجملة واحدة فقط تتعلق بموضوع العفو والصفح.

٢ ـ عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنه قال: ثلاث لا يزيد الله بهن المرء المسلم إلاّ عزاً: الصفح عمن ظلمه، وإعطاء من حرمه، والصلة لمن قطعه»[١].

ويؤكّد هذا الحديث في عبارتين من عباراته الثلاث دفع السيئة بالحسنة، وفي العبارة الأولىٰ يؤكد العفو والصفح.

تنبيه:

يجب عدم الالتباس والخلط بين موضوع العفو والصفح وموضوع الاستسلام للعدو، الاستسلام من علائم الضعف والذل، وفقدان الشخصية، والعفو يدل على كرم الفرد وسمو شخصيته، لكنه ينحصر دائماً بالمسائل الخاصة التي يكون للفرد فيها القدرة على الانتقام، ولا يشمل المسائل العامة وحقوق المجتمع، وحتىٰ بعض المسائل الخاصة كأن يتسبب العفو في تشجيع المقابل على مثل تلك الحالات، فلا يسوغ فيها العفو.



* الشرط الرابع: اجتناب الفظاظة والغلظة:

يُعد استخدام أسلوب القوة في حل المشاكل الاجتماعية وخصوصاً المشاكل العالمية والدولية ـ واحداً من أهم عوامل الاختلافات والنزاعات المعقّدة والحوادث الخطيرة المؤسفة.

فاللجوء إلى القوة يحرك عرق الحقد في القلوب ويضرم نار

---

(١) الوافي، ج ١، ص ٨٣ أبواب جنود الإيمان.

الانتقام فيها، ولا ينحصر تأثيره في عدم تخفيف حدة التوترات والمشاكل فقط، بل غالباً ما يزيد من حدتها ومن حجمها كما نلاحظ نشوء كثير من المشاكل الراهنة من هذا المصدر.

وهذا الأسلوب مليءٌ بالأضرار، وينتهي دائماً بثمن باهظ يسبب لسالكيه خسائر باهظة، ولكنه ـ على الرغم من جميع عيوبه ومخاطره وعواقبه الوخيمة ـ الطريق الأول الذي يختلج في ذهن الفرد لحل مشاكله، والسر في ذلك هوان اللجوء إلى الطرق السلمية وترك الغلظة له صبغة عقلائية، بينما نجد أن أعمال العنف لها جانب شعوري، وكلنا نعلم أن النضج والتكامل العقلي في الإسلام يعتبر آخر مرحلة من مراحل نضجه، في حين أن مراحل التكامل الشعوري تسبقها، وأغلب الأفراد يعيشون في المراحل الشعورية.

وتُعد الطفولة مرحلة تربية الإحساسات، ويتضح من خلال مطالعة دقيقة في وضع الأفراد الحاليين والمجتمعات الحديثة أنهم يعيشون مرحلة الطفولة الأخلاقية والعقلية، لذلك فهم يميلون إلى أعمال العنف.

وعلى الرغم من كون هذا الطريق غير مجد في حل المشاكل، لكنه يجوز اللجوء إليه في حالة انسداد جميع الطرق الباقية.

فقلما يلجأ فرد أو شعب ناضج إلى هذا الأسلوب لحل مشاكله الاجتماعية؛ لأنه يمكن حل أغلبها بالطرق السلمية وبقوتي العقل والأخلاق.

ولقد أولىٰ الإسلام هذه المسائل الحياتية أهمية خاصة ووردت أخبار كثيرة عن الأئمة المعصومين حول أثر الرفق في الحياة الإنسانية وذكرت نتائجه الإيجابية بعبارات مختلفة، ودعت المسلمين إليه وحثتهم عليه، وهناك باب خاص في كتب الحديث بعنوان (الرفق) تحتوي أحاديث كثيرة، نكتفي بذكر بعضها لنبين رأي الإسلام في هذا المجال:

١ ـ عن النبي ﷺ: «إن في الرفق الزيادة والبركة، ومن يُحرم الرفق يُحرم الخير».

٢ ـ وعنه ﷺ أيضاً: «لو كان الرفق خلقاً يُرىٰ ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه».

فيُفهم من هذا الحديث أن العنف من أقبح الرذائل المتوقعة للروح الإنسانية.

٣ ـ وعنه ﷺ: «ما اصطحب اثنان إلاّ كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله تعالىٰ، أرفقهما بصاحبه».

٤ ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «مَن قُسم له الرفق قُسم له الإيمان».

وفسر المرحوم الفيض الكاشاني في «الوافي» في أحد أحاديث هذا الباب علاقة (الرفق) بالإيمان وقال: اللجوء إلى العنف يُفلت زمام الأمور والسيطرة علىٰ الأعصاب من يد الإنسان، وقد يصدر منه كل خطأ حتىٰ ألفاظ الكفر!.

ويمكن تفسير هذه العلاقة بصورة أخرى أيضاً وهي أن الخشونة غالباً ما تصير مصدراً للنظرة المتشائمة وسوء الظن بالمخلوقين الذي ينتهي إلى الخالق فيما بعد، وكل هذه الصفات تتناقض مع الإيمان الكامل، وبعبارة أخرىٰ إن الذين يتصفون بالعنف سيخسرون أصدقاءهم، ويؤدي بهم الحال إلى الانزواء والعزلة الاجتماعية، التي تسبب سوء الظن بالخالق والمخلوق مما يتنافىٰ مع روح الإيمان.

٥ ـ عن الباقر عليه السلام أيضاً: «إن الرفق لم يوضع على شيء إلاّ زانه ولا نُزِعَ من شيء إلاّ شانه».

وعنه عليه السلام أيضاً: «إن الله تعالىٰ رفيقٌ يحب الرفق ويعطي

على الرفق ما لا يعطي على العنف»[1].

والجدير ذكره هنا أن الكثير من أعداء الإسلام يحاولون اتهامه بالقسوة مستدلين على دعواهم بالغزوات الإسلامية، ويحاولون دسَّ السُم عن هذا الطريق، مع أن مجرد مطالعة سيرة الرسول الأكرم محمدﷺ في تلك الغزوات، وأسلوب معاملته لأعدائه الذين كانوا متعطشين لدمه الطاهر، حين وقفوا في طريق دعوته كالسد المنيع، وكذلك تعامله مع الأسرىٰ والغلول المهزومة ومجروحي الحرب، هي بذاتها من ألمع فصول التاريخ الإسلامي وخير شاهد على حب الإسلام للرفق وترك الغلظة.

والأهم من هذا هو محاولات البعض اتهام حملة الإسلام بالعنف، ـ كروحانيي الدين المسيحي في القرون الوسطىٰ ـ ولعلّ التصرفات المشينة والممارسات القاسية التي تصدر من بعض البسطاء الذين لم يواكب عقلهم الاجتماعي عقلهم العلمي، تعطي حججاً كثيراً لهؤلاء.

ومن هنا يلزم علينا اتباع جميع الأوامر الموجهة إلينا بخصوص ترك الغلظة ومراقبة حركاتنا في المجتمع، لكي نعكس الصورة الحقيقية اللامعة للإسلام عن طريق الرفق واللين، ونغسل أدمغة البعض من الإشاعات المسمومة. . . ؛ وأن نشرح فلسفة الغزوات والحروب الإسلامية؛ لكي تتضح صفتها الدفاعية أو الكفاحية من أجل نيل الحرية في بعض الأحيان، بصورة تامة.

وأيضاً ينبغي عدم الاشتباه في أن اللين والرفق وترك الخشونة لا يعني الاستسلام لمنطق القوة والخشونة للأعداء المتربصين ومصاصي الدماء والمستعمرين والمستغلين، بل كما ورد في القرآن الكريم في سورة الفتح: ﴿أشداء علىٰ الكفار رحماء بينهم﴾، وكذلك رحماء بالذين انتصروا عليهم وأمنوا مكرهم.

---

(١) الوافي، ج ١، ص ٦٨، أبواب جنود الإيمان.

الفصل التاسع

طريق كسب القلوب

*** ماذا نعمل لكي تؤثر نصائحنا، وكلماتنا بصورة عامة في قلوب الآخرين؟**

هناك شعبة من الأخلاق الاجتماعية تهدف أو تؤدي إلى النفوذ في قلوب الآخرين وكسب ثقتهم، وهنالك فضائل كثيرة في هذا المجال ذَكَرها علماء الأخلاق في الغالب كفضائل فقط دون أن يلتفتوا إلى نتائجها الخاصة.

وهذه الشعبة من الأخلاق الاجتماعية واسعة ومليئة بالأسرار الخفية والدقيقة، وضرورية جداً، خصوصاً للعلماء والمبلغين، وبدونها لا يستطيعون بلوغ أهدافهم المرسومة بالاعتماد على معلوماتهم وجهودهم الإصلاحية الخاصة فقط، وقد يواجهون الإخفاق والانكسار في مساعيهم.

وما أكثر الفضلاء والعلماء الذين قضوا حياتهم بالعزلة والانزواء، نتيجة لعدم معرفتهم بهذه الشعبة من الأخلاق الاجتماعية، فلا استفاد الناس من أفكارهم وعلومهم، ولا استطاعوا هم أن يحققوا نجاحاً مرموقاً في المجتمع.

وبعكسهم بعض الأفراد الأقل منهم فضيلة وعلماً، فقد استطاعوا أن يصلوا إلى مواقع متقدمة أكبر من لياقتهم الواقعية في المجتمع، بسبب معرفتهم بهذه المبادىء وتطبيقهم لها.

وبإهمال هذه الحقائق يؤدي أحياناً إلى إلقاء تبعات الإخفاق في الجهود والمساعي الاجتماعية على عاتق عوامل وهمية كالحظ والصدفة، في حين أننا لو فسرنا الحظ بمعنىٰ «الإلمام بهذه المبادىء» لكنا أقرب بكثير إلى الواقع.

وعلى أية حال فإننا نجد هنا ضرورة ملحة لطرح النقاط التالية، قبل كل شيء:

١ ـ إن ارتباط حياة الفرد بالمجتمع أمر ضروري، فيجب عليه الإلمام بالمبادىء الصحيحة التي تؤدي إلى نفوذه في قلوب الآخرين لكي يتمكن من إثارة اهتمامهم للتعاون معه، وهو الغرض النهائي من الحياة الاجتماعية.

وعامة أفراد المجتمع بل العاديون منهم متساوون في حاجتهم إلى هذه المبادىء وسيواجهون مشاكل كبيرة إذا ما أهملوها ولم يطبقوها عملياً، ولكن الذين أخذوا على عاتقهم قيادة مجموعة صغيرة أو كبيرة بشكل من الأشكال يحسون بالحاجة إلى معرفتها بصورة أكثر من غيرهم، وحاجة القادة الروحيين والمبلغين العقديين ـ الذين يجب عليهم النفوذ في أعماق وزوايا أرواح الناس وقلوبهم ـ إليها أكثر من الجميع.

ونستنتج من هذا أن لهذه الشعبة من الأخلاق الاجتماعية صبغة عمومية لا خصوصية، فهي لا تخص فئة معينة من الناس.

٢ ـ الموضوع المهم الذي نجد أن من الضروري جداً ذكره هنا هو أننا لو تصورنا أن سبيل النفوذ في أفكار الآخرين ينحصر بمعرفة الأدلة القوية الدافعة لكل موضوع، أو بالدقة في ذكر محاسن ومعايب الأمور المطروحة، لكنا على خطأ عظيم.

فمهما كان الاستدلال قوياً ومنطقياً فإنه ينفذ في المنطقة الإرادية من روح الإنسان فقط، في حين أن القسم الأكبر من روحه يتواجد في

المرحلة اللاإرادية أو نصف الإرادية التي لا يمكن النفوذ إليها عن طريق الاستدلال[1].

وحتىٰ الطرق الاستدلالية فغالباً ما تكون مؤثرة بصورة كافية عندما تراعىٰ هذه المبادىء أثناء طرحها. هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإن الإخلاص اللازم تواجده في مجموعة معينة لقائدها لا يحصل له بإقناعهم عقلياً وفكرياً، بل يجب عليه تعبئة عواطفهم تجاه أهدافه المرسومة لكي يكسب الثقة اللازمة للقيادة.

٣ ـ لو كان هدفنا من هذه البحوث إخضاع قلوب الآخرين لتحقيق أغراضنا الشخصية وسرقة طاقاتهم عن طريق النفوذ في أفكارهم، لصار عملاً مذموماً ونموذجاً واضحاً للاستعمار والتسلط.

وأما لو كان لأجل توحيد القوىٰ لتحقيق هدف اجتماعي سام أو لإصلاح وتربية الإنسان لصار عملاً ممدوحاً وشرطاً أساسياً للقيادة الصحيحة.

وعليه فإن أساليب إعمال واستخدام هذه المبادىء متشابهة تقريباً في كل مكان، والاختلاف الوحيد يكمن في النتائج واستثمارها.

---

(١) يعتقد علماء النفس بأن لذهن الإنسان ثلاثة جوانب:

أ ـ جانب الإرادة: وهو الجانب الذي يستعين الذهن فيه بالاستدلالات وبالمعايير المنطقية والعقلية وبنتائج المشاهدات والتجارب، وتتضح علاقة المسائل فيه وبالمعايير المنطقية والعقلية وبنتائج المشاهدات والتجارب، وتتضح علاقة المسائل فيه للإنسان بصورة كاملة، وبعبارة أخرىٰ «فالإرادة بيت العقل».

ب ـ جانب نصف الإرادة: وهو منطقة الأفكار والمعلومات المبهمة وغير المنتظمة، وبعبارة أخرىٰ فإن المنطقة «نصف الإرادية» هي ميدان المشاعر والرغبات والأفكار التي تنشأ من غرائز معينة كغريزة حب الذات وغيرها وتتصف بالإبهام.

ج ـ جانب اللاإرادة: وهو جانب الذهن المظلم والمنسي الذي لا يعرف الإنسان عن محتوياته شيئاً في الظروف الطبيعية، وتتمركز فيه جميع الرغبات غير المشبعة؛ لأسباب معينة، والمترسبة من الجانب الإرادي، وكذلك الذكريات المنسية التي يمكن أن تعود للذاكرة أحياناً، أو لا تعود لها أبداً، نتيجة للعلاقة السلبية الموجودة بينها وبين إحدى الرغبات.

٤ ـ النفوذ في أعماق الآخرين يستلزم قبل كل شيء الإصلاح والمعرفة بمبادىء علم النفس ومعرفة الذات، والنفوذ في زوايا روح الإنسان بصورة عامة، وفي روح الفرد المقصود بصورة خاصة.

والبعض يعرف هذه المبادىء بصورة ذاتية نوعاً ما، لامتلاكهم أذواقاً خاصة، كما أن البعض الآخر قد تعلمها تدريجياً عن طريق الحاجة والتجربة، ولكن الكثير من الناس يضطرون لاكتسابها واستخدامها عن طريق حلقات الدرس.

٥ ـ ولا يلتبس الأمر، فمعرفة طرق التأثير والنفوذ في نفوس الآخرين ليس كافياً وحده، فما أكثر الذين يتمتعون بمعلومات علمية كافية في هذا المجال، لكنهم عاجزين عن تسخيرها بصورة صحيحة، فتطبيقها يحتاج إلى تمارين واستعدادات كافية، أي يجب أن تصير «ملكة أخلاقية» لكي يمكن التوصل بواسطتها إلى نتيجة مرضية.

٦ ـ يُفهم من مطالعة سيرة الأنبياء العظام، وخصوصاً الرسول الأكرم محمدﷺ، والأئمة المعصومين عليهم السلام ـ أنهم صلوات الله عليهم أجمعين ـ قد استعانوا بالكثير من هذه المبادىء لتحقيق أهدافهم الرسالية والتربوية وضربوا بأنفسهم المثل الأعلىٰ لهذه الشعبة من الأخلاق الاجتماعية الفاضلة، وكان أسلوبهم في التعامل مع الآخرين ناجحاً، ومن خلاله كانوا يجذبونهم إلى أنفسهم وإلى مبادئهم السامية، وقد وصف البعض جميع هذه الأمور بالصبغة الإعجازية في حين أنها ليست كذلك، فلو اتبعنا سننهم وأساليبهم في التعامل مع الآخرين لتمكنا من جذب الناس والنفوذ في أعماق نفوسهم بسرعة.

قال تعالىٰ في محكم كتابه الكريم بشأن نبيه العظيم محمدﷺ: ﴿ويقولُنَ هو أُذن قل اذن خيرٍ لكم﴾ (التوبة، الآية ٦١).

وفي آية أخرىٰ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران، الآية ١٥٩).

وقال أيضاً: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم

حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (التوبة ـ الآية ١٣٨).

وسنرى بإذن الله تعالىٰ، ما لصفة «الإذن» ـ التي هي معنىٰ احترام كلام الآخرين وعدم سلب الثقة منهم بلا مسوغ واعمال الليونة والمداراة والمحبة والإخلاص معهم وإيجاد الحلول لمشاكلهم ـ من أثر بليغ في النفوذ إلى أفكارهم.

وكذلك نرىٰ في سيرتهﷺ: «إنه كان دائماً هو المبادر بالتحية والسلام، وكان يصبر إذا دعاه أحد في حاجة حتىٰ ينصرف، وكان لا يسحب يده عند مصافحة أحد حتىٰ يكون هو المبادر بسحبها، وكان يكنّي الآخرين حتىٰ الأطفال ولا يجلس في صدر المجلس»[1].

وسيتضح أثر كل هذه الأمور الأخلاقية في التأثير على الآخرين من خلال البحوث الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

٧ ـ والواضح جلياً أنه يلزم في هذا البحث ـ كباقي البحوث الاجتماعية والموجهة ـ أن لا يُستعان بالوسائل والطرق الملتوية للوصول إلى المقصود، وهو التأثير في الآخرين، بل تجب الاستعانة بطرق صحيحة لنيل أهداف صحيحة أيضاً.

❀ ❀ ❀

* غرضنا البحث عن الحقيقة أم اللغو والجدال؟

لِمَ لا نتوصل في مناقشاتنا إلى نتائج مرضية؟

لقد لاحظنا جميع الأمور التالية مراراً عند المجادلة مع الآخرين:

١ ـ حَدَث في كثير مِنَ الأحيان أن فشلنا في جدالات طويلة دامت عدة ساعات، في حين أن الموضوع في نظرنا واضح ومنطقي بصورة كاملة، لكن المقابل امتنع عن تقبله.

---

(١) إحياء العلوم، الغزالي، ج ٣، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٧.

٢ ـ كثيراً ما أسفرت الجدالات عن تعصب وتمسك الطرف المقابل بعقيدته أكثر من السابق.

٣ ـ كثيراً ما يحدث أن نشعر بعد جدال طويل بأن قلوبنا لا تكن ذلك الود والإخلاص السابق للطرف المقابل، بل نشعر بالحقد والبغض غير المبرَّر تجاهه.

٤ ـ أثبت تاريخ الجدالات والمناقشات أن الفائدة الناتجة من الطاقات الوفيرة المبذولة لإثبات عقيدة ما أو مذهب معين، ومن الكتب الكثيرة المعَدّة بجهود وأموال كثيرة لهذا الغرض قليلة جداً.

٥ ـ كثيراً ما تتحول النقاشات العلمية، المفتتحة في محيط مفعم بالإخلاص، إلى نزاعات ـ وأحياناً ـ انهيارات نفسية لدى البعض واعتداءات بالضرب أو الجرح، على الرغم من انفاء العلاقة بين «الضرب والجرح» و«البحث العلمي» وعدم إمكانية إثبات أحدهما بالاستعانة بالآخر أبداً.

٦ ـ كثيراً ما حدث أن عجز الطرف المقابل وسكت عن الإجابة عن منطقنا القوي، ومع هذا نلاحظ عدم خضوعه لتلك المسألة، أو اقتناعه بها.

وجميع هذه المسائل تعبر عن حقائق غالباً ما يلمسها الذين يتعاملون مع المناقشات العلمية، الاجتماعية والسياسية وغيرها، بشكل أو بآخر في الاختبارات والحوادث اليومية، وتستحق التدقيق.

لِمَ يحدث ذلك؟ لأن هذه المناقشات لم تكن بحثاً عن الحقيقة، بل لهزم الخصم والتغلب عليه، والفرق شاسع جداً بين الحالتين مع أنهما متشابهتان في الظاهر.

فالهدف من التحقيق والبحث عن الحقيقة هو إعطاء الشيء لفاقده بدون أخذ شيء منه، أي تعليمه بدون تحطيم شخصيته، لكن الهدف من المشاجرات والجدالات المنطقية في ظاهرها، هو سلب

امتياز وغرور وشخصية الطرف المقابل وجرح عواطفه بتعليمه شيئاً تافهاً (في نظره أو في الواقع)، لذا فلا عجب من لجاجته وبغضه لها؛ يقول علماء النفس:

١ ـ قد نتمكن من ازعاج شخص عن طريق المشاجرة والجدال لكننا نعجز عن إحراز رضاه القلبي.

٢ ـ لا يمكن أبداً مكافحة الجهل بقوة المنطق وعن طريق الجدال.

وقلما يكون للمشاجرات التي تجري بصيغة تنازعية أو هجومية أو دفاعية أثر ملحوظ في إحراز الرضا الباطني للطرف المقابل، وإلحاحه يشير إلى خوفه علىٰ شيء من شؤونه الخاصة، وإلا فلا معنىٰ لعناد فرد معين أمام تعلّمه شيئاً من أحد.

وقد تكون الجدالات التي تثير عواطف الفرد وتقوده إلى اللجاجة على الأشكال التالية:

١ ـ الجدالات المشوبة بتحقير الخصم أو الاستهانة بعقائده كأن يُقال: «رأيُكَ غير منطقي أصلاً، أو غير معقول، أو لا يؤيده أحد، أو يُستبعَد صدور هذا الكلام منك، أو عجيب و...».

٢ ـ الجدال حول شخص ثالث يميل إليه الطرف المقابل (وغالباً ما توجد هذه المسألة بين الناس).

٣ ـ الجدالات التي لها صبغة تعليمية مع عدم كون المقابل بمنزلة تلميذ المتكلّم، أو عدم تقبله لذلك.

٤ ـ الجدالات التي يدل الانتصار فيها على أفضلية وتفوق المتكلم وتسحق روحية حب الظهور الموجودة في الطرف المقابل.

٥ ـ الجدال الذي يُفهم منه تخطئة بعض تصرفات الطرف المقابل، أو أقربائه وأصدقائه ومريديه.

٦ ـ الجدال حول مسائل متأصلة في الطرف المقابل، نتيجة لإيحاء المحيط أو الوالدين وأمثال ذلك ومتحولة جزءاً من أفكاره الأساسيّة.

ففي مثل هذه الحالات، وللنفوذ في فكر الطرف المقابل وروحه، ينبغي عدم الاستعانة بالأساليب الطبيعية المتداولة أثناء الجدال، بل يجب الاستعانة بالطرق الخارجية مطلقاً عن الموضوع.

*** الجدال والمراء:**

دققت التعليمات الإسلامية بشدة في أسلوب التباحث مع الناس وخصوصاً الجهلاء والبسطاء منهم، ونهت عن المباحثات الفاقدة لصيغة «البحث عن الحقيقة» في موضوع تحت عنوان الجدال والمراء، وقد نُهي في بعض الحالات حتىٰ عن مطلق الجدال.

قال تعالىٰ في محكم كتابه الكريم: ﴿ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلاّ بالّتي هي أحسن﴾ (العنكبوت ـ الآية ٣٦).

وقال في موضع آخر: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النمل ـ الآية ١٣٥).

فقد نهىٰ عز وجل في هاتين الآيتين عن الجدال الخالي من صيغة «التي هي أحسن» ومراده من «التي هي أحسن» الجدال المفعم بالإخلاص والممزوج بالمحبة والأدب الذي لا يولد في نفسية الطرف المقابل أية ردود فعل سلبية أو سيئة.

وقد أمر الله عز وجل رسوله الكريمﷺ في بعض الحالات بأن يقابل لغو المنافقين بالسكوت التام واجتناب الجدال معهم بصورة مطلقة، الجدال الذي يقود إلى اللجاجة: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾ (الحج ـ الآية ٦٨).

وقد نهت الأحاديث المنقولة عن طرق العامة والخاصة عن هذا العمل بتعبيرات لطيفة مختلفة كشفت النقاب عن سلسلة من النقاط الخفيّة.

١ ـ عن النبي محمدﷺ: «ذروا المراء فإنّه لا تُفهم حكمته ولا تؤمن فتنته» (منية المريد، وإحياء العلوم، ج ٣ ص ١٧٦).

٢ ـ وعنهﷺ: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتىٰ يدع المراء وإن كان حقاً»... (سفينة البحار ـ موضوع المراء).

٣ ـ قال سليمان عليه السلام لابنه وهو يعظه: «يا بني إياك والمراء فإنه ليست فيه منفعة وهو يهيج بين الإخوان العداوة» (إحياء العلوم).

٤ ـ وعنهﷺ: «ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلاّ أوتوا الجدال» (إحياء العلوم).

٥ ـ عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «يا كميل إياك والمراء فإنك تغري بنفسك السفهاء إذا فعلت وتفسد الإخاء»... (سفينة البحار).

❁ ❁ ❁

تناولت الروايات المذكورة أعلاه الآثار السيئة الناجمة عن المباحثات المشوبة باللغو والجدال، بصورة دقيقة، ويستَنتَج منها ما يلي:

١ ـ لا فائدة من الجدال في الكلام ولا يعود بشيء على صاحبه؛ لأنه يحث الطرف المقابل على اللجاجة بسبب جرح مشاعره وعواطفه.

٢ ـ الجدال يتنافىٰ مع حقيقة الإيمان (لأن الجدال من علائم التكبر وحب الظهور، وما اجتمع التكبر مع الإيمان أبداً؛ لأن الاستسلام للحق والخضوع له، من روح الإيمان.

٣ ـ الجدال يقود إلى الفتنة ويخلق العداوة والبغضاء؛ إذ لا أحد يرضىٰ بتحطيم شخصيته ولا يستصعب ذلك.

٤ ـ الجدال يؤدي إلى الضلال؛ لأنه يحرك غريزة اللجاجة وحب الذات والتعصُّب ويمسخ الحق.

٥ ـ الجدال مع الجهلاء يشجعهم على هتك حرمة الإنسان ويجرؤهم عليه؛ لأنهم عندما تتعرض كرامتهم للخطر سينسون قدسية الحرمة التي يكنونها للعلماء في الحالات الطبيعية.

ولأجل التخلص من كل هذه المخاطر العظيمة، أمر الإسلام باجتناب البحث والكلام الذي له صبغة التخاصم واللغو والجدال ولو لإثبات الحق.

* معنى الجدال والمراء:

الجدال لغة بمعنى الخصومة، والجدل بمعنىٰ شدة الخصومة.

والمراء لغة بمعنىٰ أخذ الحليب من الثدي، ويُستنتج من تعبيرات البعض من اللغويين أنه في الأصل بمعنىٰ استخلاص الحليب، والمعنىٰ الأوسع هو مطلق الاستخراج، واستعمالها هنا من باب كون هدف الجميع من البحث والجدال هو استخراج قصد الآخر.

وعلى أية حال، فالفرق اللغوي بين كلمتي المراء والجدال طفيف جداً، ولكن البعض وضعوا هذه الفروقات بينهما:

١ ـ المراء يهدف إلى إظهار الفضل والكمال، وأما الجدال فالقصد منه تحقير الطرف المقابل.

٢ ـ الجدال يخص المسائل العلمية والمراء أعم منه.

٣ ـ الجدال يطلق على الهجمات الابتدائية والتعرضية في الكلام، أما «المراء» فله صبغة دفاعية[(١)].

* اجتناب حب الذات:

يجب على من يريد النفاذ إلى أرواح الآخرين وأفكارهم أن لا

---

(١) راجع المجلد الخامس عشر من كتاب بحار الأنوار، الجزء الثالث، الفصل الأخير من باب الإيمان والكفر.

يلح لفرض الحقائق على الطرف المقابل كفكر صادر منه، بل على العكس من ذلك، يجب أن يسعىٰ لسرد الحقائق بصورة مجردة ومطلقة.

لأننا نعلم أن كل فرد يعشق أفكاره الخاصة ـ كما يعشق أولاده الصلبيين ـ وسبب عشقه وتعلقه واحد في كلتا الحالتين، لأن أفكاره تعتبر (كأولاده) جزء منه، وعشقها شعاع من حب الذات الذي هو من أعمق الغرائز الإنسانية، وبالعكس فأفكار الآخرين (كأبنائهم) غريبة عليه، ولا يستطيع أن يوطن نفسه على حبها، وتؤدي إلى إثارة غريزة التنافس لديه أحياناً.

وعليه فإن إقناع الإنسان بالحقائق عن طريق فكره، أسهل وأهون من فرضها عليه؛ لأن العقل والعاطفة يصيران في اتجاه واحد في مثل هذه الحالات. وبالعكس إذا ما أُدخلت هذه الحقائق كموجودات غريبة إلى روحه، فستحصل تضادات ونزاعات كثيرة بين عقله وعاطفته، تسفر عن تغلب العاطفة على العقل في أكثر الأفراد، فالعقل يريد أن يتقبل ذلك الفكر لصحته، لكن العاطفة تستغرب منه وتنسبه للآخرين وتمتنع عن تقبله.

ويلزم هنا الإشارة إلى أنه لو كان مقصودنا التفتيش عن الحقيقة حقاً، لا الانتصار الشخصي، فما المانع من أن يتصور الطرف المقابل أن أصل الفكرة يعود إليه، فلو كان هدفنا قبول أصل الفكرة أساساً، فلِمَ نصر عليه أن يتقبلها بوصفها فكرة صادرة منا؟!.

والتجارب الكثيرة التي أجريت على مختلف الأشخاص تشير بوضوح إلىٰ أن استعمال هذا الأسلوب للنفوذ إلى أفكار الآخرين، غالباً ما كان مصحوباً بنصر حاسم، وللوصول إليه ينبغي اتباع الخطوات التالية:

١ ـ السعي إلى سرد قسم من الموضوع وترك التكملة على عاتق السامع وبتوجيه ومعونة المتكلم، أي أن تكون مهمة المتكلم في

الحقيقة توجيه أفكار الطرف المقابل واستعداداته الذاتية، لا خلق أفكار مستقلة جديدة لديه.

٢ ـ السعي إلى طرح النقاط على شكل بحوث علمية مطعمة بالأسئلة والاستفهامات وترك الجواب النهائي، الذي يمثل التصميم النهائي في المسألة، على عاتق الطرف المقابل.

٣ ـ أن يحترز المتكلم من إسناد الموضوعات إلى نفسه، خصوصاً بعبارات مثل: «لم يُدْلِ أحدٌ قبلي بهذا الرأي» وغيرها.

٤ ـ يجب التذكير بصراحة والاستشهاد بعبارات أو إشارات من حديث الطرف المقابل حول الموضوع المعين إن وُجدت، حتىٰ في غيابه، ولكن بحضور من يحبه أو يحترمه كأبيه، وأستاذه وشيخ عشيرته أو صديقه المخلص...

والقرآن الكريم الذي يعتبر المثل الأعلىٰ للكلام النافذ بالسحر، وغالباً ما استعان بهذا الأسلوب واستعمل هذه الطريقة في احتجاجاته علىٰ المخالفين والمذنبين وطرح المسائل المختلفة بعبارات مثل:

«إله مع الله»[١]؟ و«مَنْ إلهٌ غير الله»[٢] و«هل من خالق غير الله»[٣] وعبارات مثل: «أَفَلَمْ يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها»[٤]، وترك الحكم النهائي علىٰ عاتق السامعين واستمد العون من وجدانهم في طرح المسائل وحلها.



* كسب العواطف الإيجابية:

وكما أشرنا في البحث السابق فإنه ينبغي السعي دائماً لتجنّب

(١) سورة النمل، الآية ٦١.
(٢) سورة القصص، الآية ٧١.
(٣) سورة فاطر، الآية ٣.
(٤) سورة الحج، الآية ٤٦.

تضادّ العقل والعواطف عند طرح المسائل، والسعي أيضاً إلى عدم إهمال العواطف بل توجيهها باتجاه العقل لكي تزيده قوة ـ كما تزداد جاذبية القمر في حالات المد والجزر عندما تصير بنفس اتجاه جاذبية الشمس ـ ولبلوغ هذا الهدف وكسب العواطف ينبغي مراعاة الأمور التالية:

١ ـ اسم الفرد أحلىٰ كلمة وألطف النغمات لديه، فينبغي الاستعانة بذكر كنيته لكسب عواطفه، مع تكنيته بأحب الكنىٰ وأغلاها لديه، وقد حثت الروايات على تكنية الفرد في حضوره، وقد نقل عن أخلاق الرسول الأكرم محمدﷺ أنه كان ينادي كل فرد بكنيته ويختار كنية مناسبة لمن ليست له كنية.

٢ ـ يجب فسح المجال للآخرين لتكملة كلامهم، والإنصات إليهم، مما يدل قبل كل شيء على بحث الشخص عن الحقيقة، إضافة إلى إخلاصه واحترامه وتقديره لأفكار الطرف المقابل، ولكلّ من هذه النقاط حصة فعالة في كسب عواطفه الإيجابية.

وعلاوة على جميع ذلك فمن الطبيعي أن يحبذ الفرد جميع قواه لبيان عقيدته واستدلالاته الخاصة، ويفكّر بجدية لتوضيح ما يختزنه عقله، ومن المؤكَّد في هذه الحالة أن يكون فاقدَ الاستعداد لتقبل كلام الآخرين، وذكر الاستدلالات قبل أن يفرغ تماماً من كلامه بمثابة نثر البذور في أرض مليئة بالأشواك والأدغال.

وقد يحدث أن تكون للبعض عقد نفسية تحل بذكرهم مسائلهم ليتحوّلوا إلى أفراد طبيعيين مستعدين لتقبل كلمة الحق، وقد جاء في سيرة الرسول الأكرم محمدﷺ والأئمة المعصومينعليهم‌السلام أنهم كانوا يفسحون لخصومهم المجال الكامل للكلام.

٣ ـ إظهار الشوق لما يميل إليه الطرف المقابل ـ وللتحدث بذلك أثر بليغ في كسب عواطف الأفراد ـ وقد جاء في سيرة الرسول الأكرمﷺ أنه كان يختلي ببعض أصحابه ويسألهم عن أمورهم العائلية

وعن زوجاتهم وأولادهم وما يحبونه.

٤ ـ يجب ذكر محاسن الطرف المقابل الكلامية وذكرها بما تستحقه من الأهمية لكي يستعد روحياً لتقبل نقاط ضعفه وأخطائه.

٥ ـ الشفقة العملية بمعناها الواقعي هي من أهم عوامل كسب عواطف الآخرين وإعداد أرضيتهم الفكرية لتقبل المسائل المبدئية، فلو لمسوا شفقة عملية من المتكلم لأمكن أن يتقبلوا كلامه حتىٰ لو كانوا غير مقتنعين باستدلالاته بصورة كاملة، ويخطئوا فكرهم ويقنعوا أنفسهم بصحة آرائه وأن صلاحهم في ما يقترحه.

فالسر في تقبل الناس العجيب لكلام الرسولﷺ هو كونهم قد وجدوا فيه المشفق الحقيقي عليهم لدرجة أنهﷺ كان يتألم لعدم إيمان البعض بما نزل من الحق، بحيث كانت علائمه تظهر على ملامحه الشريفة: ﴿ولعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (الكهف ـ الآية ٦).

ونجد أيضاً أن من سيرتهﷺ: «ما كان يأتيه أحدٌ حرٌ أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته».

٦ ـ يجب أن يكون أسلوب التذكير بالأخطاء بشكل حتىٰ لو لم يكسب عواطف الطرف المقابل لصالح المتكلم فإنه في الأقل لا يجرحها، ولهذا ينبغي تذكير الآخرين بأخطائهم بصورة غير مباشرة قدر المستطاع.

وتعتبر قصة تعليم الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام الوضوء لشيخ كبير، كان لا يجيد الوضوء، من أشهر وألطف النماذج في الأسلوب غير المباشر.

ويمكن لعبارات مثل: «ألا تعتقدون أن الحالة الكذائية أفضل»؟ و«أليس الأفضل أن نعمل كذا...»؟و«إنني أؤدي عملي بهذه الصورة أحياناً...» وما شاكلها، الأثر في تذكير الطرف المقابل بأخطائه بصورة غير مباشرة، وتُثمر نتائج ممتازة.

٧ ـ يجب عدم إثارة غريزة اللجاجة في فرد معين دون مبرّر، ولو كان مصراً علىٰ موضوع معين خارج عن أصل الحديث، أو منتقداً له، فبدلاً من أن نخالفه في نقده أو مدحه، ندافع عنه بصورة صحيحة ومتناغمة، مما يؤدي إلى تجريده الكامل من السلاح ودفعه إلى التفكر بصورة أعمق.

فمثلاً لو أردنا أن ندعو أحداً إلى الإسلام، ونجد أنّ له أفكاراً سلبية عن المسلمين ووضعهم. وأنه مصر على التمسك برأيه أيضاً، فيجب أن لا ندافع عن المسلمين بإلحاح، بل نتناغم معه أيضاً في ذكر جزء من الانتقادات المبدئية البناءة (بلا إفراط طبعاً)، ثم ندخل معه في صلب الموضوع، فمن المؤكّد أن نصل إلى النتيجة المطلوبة بصورة أسرع.

* الإيمان بما نقول:

العبارة المعروفة «الكلام الذي يخرج من القلب يدخل في القلب» تبين ـ في الحقيقة ـ حالة نفسية دقيقة ولطيفة، يمكن الاستفادة منها للنفوذ في قلوب الآخرين؛ إذ كلنا نعلم بأن اللسان والكلام هما ترجمان الفكر والمعتقد، وأن تقييم المقالات يتم بمقياس إيمان المتكلم بها، لأن الإيمان العميق لفرد بمسألة معينة، ينبثق من تأصيل تلك المسألة في فكره وقوة استدلاله التي انتهت إلى ذلك.

وعليه فلا عجب في كون نسبة إيمان السامع بحديث معين ترتبط إرتباطاً وثيقاً بمقدار إيمان المتكلم بها، فقد يمكن أن يطرح أحد مسألة منطقية ومقبولة ولكن يظهر من نبرة قوله أنه ليس له إيمان ـ يُذْكر ـ بما يقوله، فمن المؤكد أن يؤدي ذلك إلى تشكيك السامع في هذه المسألة المقبولة ظاهرياً، وبالعكس ما لو كان الموضوع غير معقول نسبياً في الظاهر، لكنه صدر عن واحد من ذوي الألباب، ودلّت القرائن علىٰ إيمانه الراسخ والقاطع بما يقوله، فسوق يؤدي إلى تحريك غريزة التحسس والتدقيق لدىٰ الأفراد ويجعلهم يتفاءلون بحديثه.

ومما يجدر الالتفات إليه أن عدم الإيمان بموضوع معين ليس ما يتمكن المتكلم أن يغطيه تماماً بعباراته الزائفة، خاصة وإن الكلام ـ خلاف الكثير من الممارسات ـ مليء بمسائل دقيقة تتجلّىٰ حقيقة مشاعر وأفكار المتكلم من خلالها، شاء أم أبىٰ.

وإذا ما رأينا أن عمل المتكلم بكلامه يُعد واحداً من العوامل المهمة في الكلام المؤثر، فإن سبب ذلك خصوصية العمل في تجرمة الذات؛ لأن القول قد لا يدلل على الاعتقاد لكن عمل الفرد غالباً ما يدلل على عقيدته.

* ٥ ـ أثر التقوىٰ:

ومقولة «لا تنظر إلى من قال، بل أنظر إلىٰ ما قال» لا يتمكن أحد أن يطبقها بصورة كاملة؛ لأن الكل يعتقدون بأن الحديث يفصح عن ذات المتكلم، والكلام من ناحية الأسباب المادية ينتج عن تغيير شكل الطاقات الكامنة في الإنسان، فتتحول الطاقة الكيميائية الموجودة في الأوتار الصوتية إلى طاقة ميكانيكية والأخيرة إلى طاقة صوتية.

وأما من ناحية محتواه وتركيبه المعنوي فإنه نابع عن الأفكار والتربية والمحيط والمعلومات والصفات والحالات المعنوية.

ولذلك فإن كل كلام يتلوّن بصبغة المتكلم وصفاته، الروحية والمعنوية، الحسنة أو الرديئة، ومن المؤكَّد أن جميع بوابات الروح الإنسانية تنفتح أمام كلام يصدر من تقي، يتقبل الإنسان أفكاره بجميع وجوده، وتنغلق أمام كلام يصدر من شرير فاسد، ويصطدم بردود فعل سلبية لاإرادية من السامع.



الفصل العاشر

علاقة الأخلاق بالتربية

علاقة الأخلاق بالتربية

تعتبر التربية من أهم المسائل التي يواجهها كل إنسان، وإذا ما شئنا تفسيرها بمعناها الواسع علينا أن نقول: إنها الهدف من خلق جميع الكائنات في عالم الوجود.

وقد تلخصت جميع جهود ومساعي أنبياء الله والعلماء والعظماء في التاريخ في هذه المسألة، ولا سبيل لبناء مجتمع إنساني عامر وآمنٍ وهادىء وسعيد إلا بالتربية الصحيحة وتعبئة جميع القوىٰ والإمكانات في هذا الطريق.

والهدف النهائي من الدروس الأخلاقية أيضاً، بعد شرح وتوضيح جميع الملكات الأخلاقية الفاضلة والرذيلة وأسباب نشوئها وتأصّل جذورها وطريق تحصيل الفضائل ومحاربة الرذائل، هو التربية الصحيحة.

* ما هي التربية؟

قال بعض علماء النفس: إن التربية عبارة عن الاستعداد لتحصيل الحق وتحمل المسؤولية في الحياة المستقبلية.

في حين أن البعض الآخر قالوا: «إنها عبارة عن الاستعدادات واستعمال القوىٰ الداخلية للوصول إلى هدف معين.

والبعض الآخر كالعالِمْ النفسي الشهير «جون ديوي» يقول: «إن

التربية عبارة عن إعادة النظر في التجارب الماضية وصقلها من جديد لكي تعطي نتائج أكبر وتُعدَّ الفرد للتأثير في التجارب المستقبلية»[1].

وباعتقادنا فإن التعاريف الثلاثة المذكورة أعلاه تنظر إلىٰ حقيقة واحدة، والتعريف الثالث أصلها، في الواقع، والتعريف الأول مقدمتها والتعريف الثاني نتيجتها.

وبالمناسبة ولتوضيح التعريف الثالث يجب القول: إن أعمال الإنسان على نوعين:

١ ـ الأعمال التربوية.

٢ ـ الأعمال العادية المجردة من الهدف والتربية.

ففي الشطر الثاني إما أن لا يعرف الإنسان شيئاً أبداً عن ارتباط العلل بمعلولاتها، أو لا يعرف حدها وحدودها، كأن لا يجيد فرد كيفية توصيل مفتاح الدائرة الكهربائية لعمل معين، لكي ينير المصابيح ويشغّل المعمل، وبدون معرفة واختبار سابق سيضع إصبعه ليوصل المفتاح أو المفاتيح التي يحتملها، ولكن بعد أن يفهم علاقة هذه العلة بمعلولها جيداً، ويعيد النظر في تجاربه الماضية، ويستحضرها في ذهنه ليحصل منها علىٰ معنى ومفهوم أوسع، ويعدها للتأثر في التجارب المستقبلية، سيصير هذا العمل عملاً تربوياً، يؤدي إلى توجيهه (مثلاً)، لإنارة مصباح معين، نحو مفتاح دائرة ذلك المصباح فوراً، دون أن يضيع في المتاهات.

❀ ❀ ❀

* القرآن والتربية:

التربية لغة: ـ بمعنىٰ الدفع والتنمية، وهي مشتقة من كلمة (ربو) وهو بمعنىٰ العلو، ويُعتقد أن استعمال هذه الكلمة بالمعنىٰ الذي ذكرناه

---

(١) ملخص من كتاب مبادىء التربية والتعليم للدكتور علي شريعتمداري.

ليس له تاريخ قديم، لذلك نجد أن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة «التربية» بهذا المعنىٰ الذي ذكرناه، بل جاء بتعبيرات مثل «التزكية» و«الإخراج من الظلمات إلىٰ النور».

فالآيتان التاليتان مثلاً تشيران إلى التربية التكوينية والتربية التشريعية علىٰ التوالي:

١ ـ ﴿هو الّذي يُصَلّي عليكُم وملائكتُه ليخرجَكم منَ الظُّلُمات إلىٰ النّور﴾... (الأحزاب ـ الآية ٤٣).

ومعلوم أن صلاته عز وجل على عباده كناية عن رحمته وبركاته، وصلاة ملائكته كناية عن الرحمة والبركات التي تصيب عباده بواسطة الملائكة (المدبرات أمرا)، ولجميعها صبغة تكوينية، وعلى أية حال فالهدف منها هو إخراج البشر من ظلمات الجهل إلى نور الهداية.

٢ ـ ﴿هو الذي ينزّل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾... (الحديد، الآية ٩).

أشارت هذه الآية إلى التربية التشريعية وكون الهدف منها (إخراج الناس من الظلمات إلى النور) أيضاً.

ونستنتج من هذا التعبير أن الإنسان المجرَّد من التربية يعيش في ظلمات مطلقة، ومثله مَن يمتلك طاقات واستعدادات مختلفة ولكن ليس له القابلية على قيادتها وتوجيهها لبلوغ هدف معين، فهو عاجز عن سُلوك طريق ما، وإيصال نفسه إلىٰ الهدف.

ولكن لو شُمل بعناية تربوية لصار مثله كمن خرج من الظلمات إلى النور، نور تربية وتنمية وكشف الاستعدادت، نور قابلية القيادة والتوجيه ومعرفة الهدف، وهي جميعها مفاهيم ومعانٍ تربوية موجودة في هذه الكلمة.

* الشخصية والأسلوب:

كلمة الشخصية من الكلمات التي لا تستعمل في المجالات النفسية والأخلاقية فقط، بل يستعملها عامة الناس في كلامهم اليومي أيضاً، والجميع يعرفون معناها الإجمالي تقريباً، ولكن على الرغم من ذلك فإنه يصعب العثور علىٰ تعريف دقيق وواضح ومفصل لها، ولهذا فقد وضع علماء النفس اليوم تعاريف كثيرة مختلفة لها... يقول أحدهم: أن العلماء قد وضعوا لهذه الكلمة مئات التعاريف التي ينظر كلٌّ منها إلى هذا المفهوم المعقّد من زاوية خاصة.

ومن جملة تلك التعاريف:

١ ـ الشخصية: «هي مجموع التأثيرات التي يتركها الفرد في المجتمع». وبعبارة أخرىٰ «فإن شخصية كل فرد تعبّر عن تأثيره الاجتماعي».

ولا ينحصر الإشكال على هذا التعريف وأمثاله في إنكاره لشخصية الأفراد الذين ليس لهم أي أثر اجتماعي (كالمنعزلين والمعاقين)، بل الأغلب في إعطائه الشخصية صبغة (عملية) فقط لا (وصفية) في حين أن الشخصية تعتبر جزءاً من الحالات الروحية عادة.

٢ ـ الشخصية: «هي الحالة العامة لتصرفات الفرد التي تظهر في عاداته المعينة وفكره وتعبيراته ورغباته وأسلوب عمله وفلسفة حياته».

ومع أن هذا التعريف المنقول عن العالم النفساني الشهير (ماركيوس) خال من إشكال إنكار شخصية المنعزلين، لكنه يشترك معه في إعطائه للشخصية صبغة فعلية أو انفعالية، أي التأثير والتأثُّر الخارجي.

٣ ـ التعريف الآخر الذي صرح به بعض علماء النفس هو: «الشخصية: هي التنظيم الداخلي للدوافع والانفعالات والإدراكات والذكريات، الذي يلخص سلوك الإنسان في تصرف معين».

وبالرغم من أن هذا التعريف خالٍ من الإشكالات السابقة لاحتوائه على الصبغة الذاتية والوصفية للشخصية، لكننا لو قلنا: إن الشخصية عبارة عن: «مجموعة من الصفات والحالات والروحيات التي لها قيمة إنسانية وتستطيع أن تصير مصدراً لآثار خارجية فردية واجتماعية قيّمة»، لكنا أقرب إلى مفهومها الواقعي.

* الأسلوب:

استعمل الكثير من علماء النفس كلمتي (الأسلوب) و(الشخصية) بمعنى واحد واعتقدوا أن كلتيهما تعبّر عن واقع واحد، لكنّ المتأخرين منهم وضعوا فروقاً بين هذين المصطلحين، وأطلقوا مصطلح (الأسلوب) علىٰ الجوانب الأخلاقية والملكات الفاضلة والخبيثة، وبعبارة أخرىٰ فالأسلوب يستعمل لتقييم الشخصية تعبر عن جميع الحالات الروحية والأخلاقية والعقلية والعاطفية وحتىٰ البدنية، ولا إشكال في التسمية والاصطلاح خصوصاً من ناحية أرباب كل فن بالنسبة إلى فنهم، لأن الشخصية تعبّر عن مجموعة من الصفات والحالات التي يتحول الإنسان في ظلها إلىٰ (فرد خاص) ولكلمة (الأسلوب) هذا المعنىٰ نفسه تقريباً

* علاقة التربية بالشخصية:

كيفما نفسر (الشخصية) تبقىٰ لها علاقة وثيقة جداً بالتربية، فبأي معنى كانت، التربية فإنها لا تخرج عن حالتين هما: إما أن تكون وسيلة لتفتح الشخصية الذاتية للأفراد «فيما لو اعتقدنا بوجود الشخصية في جميع الأفراد كاستعداد ذاتي وبدون استثناء»، أو وسيلة لإيجادها فيما لو اعتقدنا بأن الكلّ أو البعض من شخصية الإنسان «إيجادية». وفي كلتا الحالتين فإن للشخصية علاقة وثيقة بالتربية.

ومطالعة شخصية البشر الذين ابتعدوا عن المجتمع، نتيجة لحوادث معينة، وتربوا بين الحيوانات منذ الصغر وحالاتهم المحيرة

والضعف الشديد لقواهم الإدراكية، وحتىٰ انعدام الاستعداد الكافي فيهم للتربية الإنسانية من جديد، تعدُّ من أبرز الأدلة علىٰ ارتباط الشخصية بالتربية.

وكذلك الفرق الواضح بين الأمم المتساوية من جميع الجهات تقريباً، ولكن لو حدث أن تقدمت إحداها بسرعة بسبب امتلاكها لقائد حكيم وخطت خطوات واسعة نحو التكامل لاعتبر ذلك علاوة أخرى علىٰ أثر التربية في وضعية الفرد والمجتمع.

والفروقات الواضحة الموجودة بين الأفراد المتشابهين الذين يعيشون في محيطات مختلفة، أو فرد يعيشون في محيطين مختلفين وأمثال ذلك، تدلل جميعها على الأصرة الوثيقة الموجودة بين الشخصية والتربية، وتذكّرنا بمقالة أحد العلماء: «سلّموني أطفالاً واطلبوا مني تربيتهم كيف ما شئتم، (شجعان، جبناء، أسخياء، بخلاء، . . . الخ)».

*** العوامل المؤثرة في الشخصية:**

العوامل التي تؤثر في تشكيل شخصية الإنسان كثيرة جداً، ولعل من الصعب حصرها وإحصائها، ولكن أهمها ما يلي:

١ ـ الخلقة (البنية الجسمية والروحية).

٢ ـ الوراثة.

٣ ـ إفرازات الغدد.

٤ ـ الغذاء.

٥ ـ المحيط الأُسَري.

٦ ـ وضعية الحياة الاجتماعية (المهنية والمكسب، وضعية المدينة والدولة، الأجهزة الإعلامية والحكومة والوضع الاقتصادي و. . .).

٧ ـ التربية والتعليم.

٨ ـ الزملاء والأصدقاء (الجيران والشركاء وزملاء المدرسة وزملاء السفر).

٩ ـ الإيحاءات (الذاتية والخارجية).

١٠ ـ المطالعات والمصادر الفكرية.

١١ ـ الحوادث الطارئة.

١٢ ـ إرادة الإنسان وسعيه الذاتي.

ومما لا يحتاج إلى التذكير به هو إمكانية تسمية جميع العوامل المذكورة أعلاه بالعوامل التربوية، وذلك بسبب الارتباط الوثيق الموجود بين الشخصية والتربية الذي أشرنا إليه سابقاً.

وهذه المواضيع الإثنا عشر المذكورة أعلاه تشكل بذاتها علماً مستقلاً يمكن تناوله وبحثه تحت عنوان «الإنسان والمسائل التربوية» آملين أن نوفق له في فرصة أخرىٰ إن شاء الله تعالىٰ.

الفهرس